

عنان حمد الله

تحولات الحرب الأمريكية على العراق

الانعطاف الثقافية، صعود الباحثة المقاتل،
والعنف الاستيعابي



كتاب الجنوب

تحولات الحرب الأمريكية على العراق:

الانعطاف الثقافية، صعود الباحث المقاتل، والعنف الإستيمى

كتاب الجنوب: المجلة الفلسطينية للدراسات التحررية (3)

عنان حمدالله

تحولات الحرب الأمريكية على العراق: الانعطاف الثقافية،
صعود الباحث المقاتل، والعنف الإستيممي



دائرة سليمان الحلبي
للدراستات الاستعمارية والتحرر المعرفي
القدس، فلسطين

تحولات الحرب الأمريكية على العراق: الانعطافة الثقافية،
صعود الباحث المقاتل، والعنف الإستيمى، عنان حمدالله

**The Transformations of the American War on Iraq:
The Cultural Turn, the Rise of the Soldier-Scholar, and Epistemic
Violence, Anan Hamdallah**

دائرة سليمان الحلبي

للدراسات الاستعمارية والتحرر المعرفي

القدس، فلسطين (الطبعة الأولى، 2025)

تصميم الغلاف: محمد خيران

التدقيق اللغوي: حنين عودة الله وقسم الحاج

جميع الحقوق محفوظة ©

الترقيم الدولي: ISBN 978-9950-8609-1-9

المحتوى

- 09 1. تمهيد
- 18 2. كلاوزفيتز وسحر الحرب
- 29 3. من حرب تقليدية إلى مكافحة للتمرد
- 48 4. الانعطاف الثقافية: محاولة نزع السحر عن الحرب
- 55 5. "لورانس العرب" في الحرب الأمريكية على العراق: جذور الباحث المقاتل
- 60 6. العلوم الاجتماعية: من النشأة السياسية والاستعمارية إلى الاستخدام المزدوج
- 74 7. نظام التضاريس البشرية: من عنف الحداثة الإبتيمي إلى عنفها الفيزيائي
- 100 8. خاتمة: نظام التضاريس البشرية، لماذا؟
- 105 الإحالات
- 117 المرجعية

ملخص

تتناول هذه الدراسة المطوّلة تحوُّلات الغزو الأمريكي للعراق وما انطوى عليه من انتقال من حرب تقليدية (بين جيوش عسكرية)، إلى حرب لمكافحة التمرد (تحوُّل فيها مركز الثقل العسكري في الحرب إلى المجتمع العراقي) بحثاً عن يقين سياسي-عسكري افتقرت إليه الآلة العسكرية-السياسية الأمريكية منذ البدايات، لتحديد ماهية اليوم التالي لسقوط النظام، وبما يشكّل الأرضية لترتيبات كانت تسعى في حينه لضمان مصالح الولايات المتحدة الأمريكية في العراق المستدامة. ولعلّ أبرز مفاصل هذه التحوُّلات هي الانعطافة الثقافية للمجهود الحربي التي رافقها صعود دور الباحث-المقاتل في برنامج نظام التضاريس البشرية العسكري الذي طُبّق في مسرح العمليات في أفغانستان والعراق، في محاولة لفهم المجتمع العراقي ومن ثمّ التدخُّل في عملية هندسة اجتماعية تستهدفه بكلّيته. وبناء على ذلك، تأتي راهنية نشر هذه الدراسة المطوّلة اليوم للإضاءة على أحد إمكانات الحديث المتواصل عن "اليوم التالي للحرب في غزة"، على الرغم من اختلاف السياقات العراقية والفلسطينية، إلا أن ما تسعى إليه "إسرائيل" اليوم عقب فشلها في تهجير الفلسطينيين، وعدم امتلاكها سياسة ما بعد توقُّف العمليات الحربية، هي التعامل مع أهل البلاد قاطني قطاع غزة، ضمن رؤية تحدّث عنها رئيس الوزراء الصهيوني بنيامين نتنياهو وهي تحقيق هزيمة شبيهة بهزيمة ألمانيا واليابان في الحرب العالمية الثانية، إذ لم تكن تلك الهزائم العسكرية للجيوش المقاتلة بقدر ما كانت هزيمة للمجتمعات.

تحولات الحرب الأمريكية على العراق: الانعطاف الثقافية صعود الباحث المقاتل، والعنف الإستيمى

يشكّل هذا البحث المطوّل عدداً من فصول رسالة الماجستير أنجزها الكاتب لبرنامج الدراسات العربية المعاصرة في جامعة بيرزيت تحت إشراف أستاذي الدراسات الثقافية والفلسفة عبد الرحيم الشيخ ورامي سلامة، والتي نوقشت بتاريخ 18 نيسان 2022، وضمت عضوية النقاش كلاً من الأستاذ علاء العزة والأستاذة رنا بركات. ويقوم هذا البحث بتفصيل التحوّلات في الاستراتيجية الأمريكية في حربها على العراق، وموضعها في سياق الحرب الحديثة التي يكون فيها اللإيقين سمة متأصلة في الحرب. كما أن هذا البحث يتناول محاولات الولايات المتحدة تجاوز سحر الحرب وفشلها من خلال اتكائها على ما سُمّي بالانعطاف الثقافية في الجهود العسكرية الأمريكية للسيطرة على البيئة العراقية وهندستها بما يتناسب وأهدافها الاستراتيجية، من خلال ابتكار برنامج التضاريس البشرية في مسرح العمليات في أفغانستان والعراق، وبروز ما بات يعرف بالباحث-المقاتل وما صاحبه من عنف إستيمى تحول إلى عنف فيزيائي.

تمهيد

يصف عبد الوهاب المسيري المشروع الحضاري والمعرفي الحدائي الغربي بأنه مشروع يسعى بيقين كامل ومتعصب لحسر رقعة المجهول لصالح زيادة رقعة ما هو معلوم، وأن المجهول سيتم معرفته، ما سيعطي الإنسان أفضلية التحكم في الواقع بشكل كامل.¹ وينقل وائل حلاق عن عالم الاجتماع والفيلسوف الألماني ماكس شيلر تأكيده في كتابه **مشكلات علم اجتماع المعرفة**، بأن "من السمات الأساس للغرب الحديث هوسه باكتساب معرفة السيطرة."² هذا التوجّه ينطبق على الحرب عموماً والحرب الأمريكية على العراق على وجه الخصوص، ففي الحرب الحديثة والحداثيّة، واستناداً على ما خطه منظرها الأساسي كارل

فون كلاوزفيتز، فإن حالة اللايقين صفة ملازمة للحرب الحديثة، وأن رحلة البحث عن اليقين فيها تتطلب من القادة العسكريين الالتزام بعدد من الصفات للتغلب على حالة اللايقين ومواجهة المجهول، في سعي الفاعلين الأساسيين في الحرب لتحقيق النصر.

في سياق الحرب على العراق، وعقب انتهاء العمليات العسكرية الرئيسية للحرب والموجهة ضد الجيش العراقي، وجد الجيش الأمريكي نفسه في بيئة عسكرية واجتماعية وسياسية غير مألوفة، تتسم بالغموض الشديد واللايقين، خصوصاً مع تصاعد المقاومة العراقية للغزو. وبحسب أحد الباحثين، كان لسقوط نظام صدام حسين والسلطة المركزية في بداية الغزو أن "ظهر بديلاً عنها كتل بشرية متنافسة عرقياً وقبلياً وطائفيًا، وعلى شكل ميليشيات وأمراء حرب وإرهابيين ومقاتلين أجنب. وفي الوقت الذي استطاعت فيه القوة العسكرية الغربية الإطاحة بنظام صدام حسين، نجحت أيضاً في تحويل ما هو معروف إلى مجهول، وفي بعض الأحيان إلى ما هو غير قابل للمعرفة... فالتسلسلات الهرمية لنظام صدام حسين تمّ تفتيتها، وحلّ الفراغ محلّها بما يتضمنه من عناصر غير قابلة للتنبؤ، تماز كل منها بالتحالفات المحلية والإقليمية غير المألوفة، والمصالح الاقتصادية والتطلعات السياسية المختلفة".³

ولذلك، ما واجهته قوات الغزو التي افتقدت خطط ما بعد إسقاط النظام، بعثت فيها الحيرة واليأس، إذ ظنّت أنه سينتم استقبال القوات العسكرية الغربية والاحتفاء بها كمحرّرين لا محتّلين، وأنه سرعان ما سيتمّ تشكيل حكومة عراقية قادرة على إدارة السلطة وفقاً للتوجهات الأمريكية العامة، لتنسحب القوات الأمريكية سريعاً من العراق. إلا إن هذا السيناريو قد فشل، وبدلاً منه وقعت الولايات المتحدة الأمريكية في مستنقع يشبه مستنقع الحرب على فيتنام، بدخولها في صراع طويل الأمد ضدّ عناصر غير مألوفة، في مجتمع معادٍ وغير مألوف أيضاً، وما واجهوه حقيقة هو نوع من الصراع الذي وجدوا فيه أنفسهم يتفاعلون مع ظواهر نادراً ما يفهمونها، ويعانون من العجز في السيطرة عليها. فالجنود محاطون بأعداء

غير مرئيين ويتعدّر تمييزهم عن المدنيين، وهذا العدو يقاتل في الوقت الذي يختاره وقبل أن تستطيع القوة العسكرية التقليدية التغلب عليه. وعندما تستنزف أفضلية المفاجئة قيمتها، يعود المقاتلون للاندماج في أحيائهم المحلية وبين الناس. وبذلك خيم ضباب الحرب على الساحة العراقية بعيد انتهاء جولة القتال التقليدية ضدّ الجيش العراقي.

وقد كان لإسقاط النظام أيضاً أن فتح المجال أمام حقبة من عدم الاستقرار امتازت باللايقين السياسي والتدهور المتصاعد للوضع الأمني، أي الهجوم على قوات تحالف الغزو، إذ إن المتمردين وجدوا وسائل لنفي أفضلية القوات الأمريكية التكنولوجية، وطرقاً لإلحاق الأذى بقواتها من خلال استخدام تكتيكات تنتمي للحروب غير المتكافئة، رفض فيها المتمرّدون مواجهة القوات الأمريكية ضمن شروطها. كما أن فشل السيناريو أعلاه دفعها إلى بناء استراتيجية تحوّل فيها الصراع من حرب نظامية وتقليدية إلى حرب غير نظامية وغير تقليدية، اعتبرت فيها الثقافة العراقية مصدراً لسحر الحرب. وفي محاولة لنزع هذا السحر، ظهر ما عرف بالانعطاف الثقافية في الحرب على العراق، أي اعتبار معرفة الثقافة العراقية ودراستها معرفة مصيرية ومهمة تؤثر في مجريات الحرب ومسارها، وستساهم في تقليل الاحتكاك وضباب الحرب والصدفة أو حتى القضاء عليها تماماً بحسب ادعاء بعض الباحثين.⁴

ومن هنا، فإنّ التصور المبني في السنوات الأولى لغزو العراق، لم تدرك العسكرية الأمريكية بشكل كامل أو تفهم تعقيدات الوضع الذي يجابه الجنود على المستويين التكتيكي والعمليّاتي. فاقتران وجود شبكات للتمرد على طول البلاد، مع العنف الطائفي، إلى جانب التقسيمات الإثنية والدينية... أدّى إلى تصاعد العنف، وتصاعد العنف هذا أجبر العسكرية الأمريكية على إدراك أن الصراع في العراق قد دخل مرحلة جديدة. عندها، أدركت العسكرية الأمريكية بشكل متزايد أن هناك تمرداً في العراق، وكان الميل لديها باللجوء إلى منظرين كجالولا، على الرغم من حقيقة كون الوضع في العراق مختلفاً بشكل أساسي عن الوضع الذي

واجه فرنسا في الجزائر، إذ إن جالولا ألمح إلى أهمية فصل السكان عن المتمردين، لكنه لم يدرك الحاجة إلى الفهم الثقافي أو الحساسية الثقافية تجاه السكان. وبدلاً من ذلك، اتجه إلى تأييد تعامل الفرنسيين الفظّ مع الجزائريين كممارسة لمكافحة التمرد. وهو ما أكد عليه أحد الضباط الأمريكيين في العام 2005 بقوله إن العسكرية الأمريكية تقاسي الأمرين لفهم أهمية الثقافة للعمليات العسكرية، وإن تعقيد البيئة العملية المعاصرة تتطلب أن نقدّم للقادة التكتيكيين أداة تحليل قوية من أجل تحقيق الوعي الثقافي بالبيئة العملية.⁵

وهذا ما تناوله بشيء من التفصيل روبرت سكيلز، الميجر-جنرال الأمريكي المتقاعد، والقائد الأعلى ونائب رئيس حقل العقيدة العسكرية في الكلية الحربية الأمريكية، في شهادته أمام الكونغرس الأمريكي حول مجريات الحرب على العراق. فبعد أكثر من عام على مرورها، قال سكيلز بوجود إجماع بين الجنود الأمريكيين على أن الصراع قد خيض بشكل بارع على المستوى التقني والتكنولوجي، ولكن بشكل غير كافٍ وغير مقنع على المستوى البشري. وأضاف بهذا الصدد، بأن الفشل التقني من السهل تحديده وإصلاحه، ولكن الفشل البشري من الصعب التعامل معه. وفي سؤاله لضابط أمريكي حول الوعي الظرفي العسكري خلال الزحف نحو بغداد، قال إنه "كان لديه وعياً ظرفياً مثالياً، ولكن ما افتقر إليه هو الوعي الثقافي. نمتلك قدرات استخباراتية تقنية هائلة لكنها موجهة للعدو الخطأ".

وأشار سكيلز إلى أن ملاحظة الضابط في محلّها، وتنمُّ عن بصيرة وتنبؤ حول المصاعب التي سيواجهها الجيش الأمريكي في هذه المرحلة من الحرب، المرحلة الثقافية للحرب، حيث "المعرفة الحميمية لدوافع العدو، نواياه، إرادته، طرقه التكتيكية والبيئة الثقافية، قد أثبتت أنها أهم بكثير للنجاح من توظيف القنابل الذكية والطائرات غير المأهولة أو المسيّرة. فالنجاح في هذه المرحلة يعتمد على قدرة القادة على التفكير والتكيف بشكل أسرع من العدو، وكذلك الأمر لنجاح الجنود في بيئة موسومة بالشك وعدم اليقين والغموض والظروف الثقافية غير المألوفة. فالحرب لعبة رجل التفكير، والعسكرية المنغمسة في حلّ المشكلات

القتالية من خلال التكنولوجيا وحدها، يجب عليها أن تبدأ بالاعتراف بأن الحروب تخاض بالفكر. فكبار الضباط العائدين من العراق وأفغانستان استنتجوا بأن الأفضلية الكبرى يمكن تحقيقها من خلال التفوق على العدو بالتفكير بدلاً من التفوق عليه بالمعدات. إنهم يقولون لنا إن كسب الحرب يعتمد على خلق التحالفات، الاستفادة من الأفضلية غير العسكرية، قراءة النوايا، بناء الثقة، تحويل الآراء وإدارة التصورات والتوقعات. " ووفقاً للجنرال، فعلى كل جندي أن يتلقَى إرشاداً ثقافياً ولغوياً، والغرض من ذلك ليس تحويل كل جندي إلى عالم لغويات، بل لتحويل كل جندي إلى دبلوماسي في الزي العسكري مزود بالحساسية الثقافية المناسبة، والمهارات اللغوية للفهم وإمكانية إجراء محادثة مع السكان في الشارع.

وكتأكيد على ضرورة إنجاز هذا التحوّل، نشر الجنرال سكيلز عام 2006 مقالة في مجلة القوات المسلحة الأمريكية حول تطوّر الحروب وعلاقتها بالعلوم، متتبّعاً خطى المؤرخ ألان بيرخين وفكرته حول تحقيق تطور الحرب: "الحرب العالمية الأولى كانت حرب الكيمائيين، حيث شكّلت التطبيقات الجديدة للكيمياء والهندسة الكيميائية المحرّك الأساسي للأفضلية الاستراتيجية في ساحة المعركة... والحرب العالمية الثانية كانت حرب الفيزيائيين. وبإعادة صياغة مقولة تشيرشل، فإن القنبلة الذرية أنهت الصراع، ولكن تسخير المجال الكهرومغناطيسي في شكل اللاسلكي والرادار، هو الذي ساهم في كسب الحرب لصالح الحلفاء. والحرب الباردة (الحرب العالمية الثالثة) كانت حرب باحثي المعلومات، كانت فيها المعلومات الاستخباراتية ومعرفة العدو والقدرة على استغلال تلك المعلومات والمعرفة سبباً في هزيمة الولايات المتحدة الأمريكية للاتحاد السوفيتي بتكلفة بشرية قليلة نسبياً. ولانتصار في الحرب العالمية الرابعة (الحرب على أفغانستان والعراق)، يجب على المؤسسة العسكرية أن تكون على دراية ثقافية بشكل كافٍ لتنجح في بيئة غريبة. فالنصر سيتحدد في إطار الإمساك بالعناصر الثقافية - النفسية بدلاً من الأراضي الجغرافية المرتفعة. فالفهم وإدراك الغير ستكون أسلحة مُهمّة في الحرب."

على الرغم من اتسام عملية تحقيب تطور الحرب الذي اتبعه كل من بيرخن وسكيلز بالصرامة التاريخية، والتي اعتمدت بشكل عام على الخصائص العامة لطبيعة كل حرب، والتي من الممكن أن تتداخل وتتقاطع التطورات في كل واحدة منها بشكل مجتمع، إلا أن ما يهمنا في هذا السياق هو كيف تحوّلت الثقافة المنتجة عبر العلوم الاجتماعية إلى معرفة عسكرية، أو ما يمكن الاصطلاح عليه بعسكرة المعرفة في الحرب الأمريكية على العراق، والذي شكل فيه "الإمساك بالعناصر الثقافية بدلاً من الأراضي الجغرافية المرتفعة" دوراً أساسياً في تحقيق النصر في الحرب.

وهذا ما دعا إليه الجنرال سكيلز عندما قال إن الحرب العالمية الرابعة (الحرب على العراق وأفغانستان) ستحدث نقلة في مركز الثقل الكلاسيكي للحرب، من الحرب على إرادة الحكومات والجيش إلى الحرب على مدارك السكان، حيث "سيكون سلوك الجنود مهماً كما مهارتهم على استخدام السلاح، والوعي الثقافي والقدرة على بناء روابط الثقة ستوفر الحماية لقواتنا المسلحة بشكل أكثر فعالية من الدروع الواقية من الرصاص... بالنسبة لي، خلاصة القول واضحة، وهي إذا ما كان الهدف المحوري والأساسي للحروب العالمية الثلاث الأولى هو صنع آلات أفضل، فإن اللازمة-النتيجة للحرب العالمية الرابعة هي صناعة جنود أفضل، بشر أكثر فعالية."⁶

وقد كان هذا ما تناوله لاحقاً من سيصبح قائداً للقوات الأمريكية في العراق، الجنرال ديفيد بترايوس. ففي مقال له في بدايات 2006، اعتبر بترايوس أن التمرد في كل من العراق وأفغانستان لم يكن حقيقة الحرب التي كان الأمريكيون على استعداد لخوضها عامي 2001 و2003، ومع ذلك فهي الحروب التي يخوضونها، وهي الحروب التي يجب عليهم بكل وضوح أن يتقنوها. فالقوة العسكرية الأمريكية التقليدية الطاغية تجعل من غير المرجح لأعدادها أن يخوضوا هذا النوع من الحروب، وبدلاً من ذلك سيهاجمون القوات الأمريكية بشكل غير متماثل وغير متكافئ، متحاشين في ذلك نقاط قوة العسكرية الأمريكية. وخلص

بترايوس إلى أن الوعي الثقافي يعتبر مضاعفاً للقوة (a force multiplier)، حيث اعترفت القوات الأمريكية بأن المعرفة بالتضاريس الثقافية يمكن أن تكون بذات أهمية معرفة التضاريس الجغرافية، وربما أكثر أهمية منها في بعض الحالات. هذه الملاحظة تعترف بأن السكان في أوجه عديدة هم التضاريس الحاسمة، وعلى القوات الأمريكية دراستها كما درسوا التضاريس الجغرافية.⁷

أكد أحد الباحثين على ذلك بقوله إن الحرب على العراق يمكن اعتبارها حربين: الحرب الأولى، هي تلك التي خططت الولايات المتحدة الأمريكية لها شهوراً والتي هدفت إلى إزاحة نظام صدام حسين من السلطة. هذه الحرب أثبتت فاعلية الطريقة الأمريكية في الحرب من خلال الهيمنة التقليدية على ساحة المعركة ضمن الشروط الأمريكية للحرب، أي ضدّ عدو من الدول، وباستخدام التكنولوجيا المتطورة والذخيرة دقيقة التوجيه لإبادة العدو. أما الحرب الثانية، والتي تخاض حالياً، فهي تلك الحرب التي حاولت العسكرية الأمريكية تجاهلها لسنوات، أي مكافحة التمرد. هذه الحرب تنطوي تحت تصنيف الحروب الصغيرة، والتي تتضمن عمليات حفظ السلام والاستقرار، والصراع منخفض الوتيرة، والحروب غير النظامية، والتي تمتاز بطبيعة غير متكافئة للصراع ضدّ عدو من غير الدول، والتي تتراوح بين منظمات إرهابية وشبكات إجرامية وميليشيات مسلحة. وأن الدروس القاسية للحرب غير التقليدية الممارسة في شوارع بغداد والفلوجة والمدن التي لا تحصى في العراق، يجب أن يتم تعلّمها وترجمتها إلى سياسات وعقيدة وبنية للقوة وتدريب وتعليم، يمكن لها أن تنتج تحولاً ضرورياً لقدرة الولايات المتحدة على الانتصار في عالم يحيط به الغموض والشك، والذي ستستمر في مواجهته في القرن الحادي والعشرين.⁸

هذا الفهم المتأخر جعل العسكرية الأمريكية تتجه نحو النماذج الكلاسيكية لمكافحة التمرد. وبناء على ذلك، في مسرح الاستراتيجيا وتطوير العقيدة العسكرية، تمّ التركيز على

تحديد السكان كمركز للثقل لجهود مكافحة التمرد. وجنباً إلى جنب مع الاستراتيجية الجديدة، جاء متطلب الحاجة لفهم عميق للثقافة العراقية وإمكانية القيام بأبحاث اجتماعية وتعلم الأوجه الثقافية للمجتمع العراقي. فمثلاً دعت مونتغمري مكفيت مبكراً إلى اعتبار المعرفة الثقافية حول الخصم أولوية للأمن القومي الأمريكي. ففي معرض إجابتها على سؤال: لماذا أصبحت الثقافة بشكل مفاجئ أمراً مُلحاً وأساسياً بالنسبة للعسكرية الأمريكية، قالت مونتغمري إنه وبشكل أساسي فإن الطرق التقليدية في خوض الحرب قد أثبتت أنها غير ملائمة في كل من العراق وأفغانستان. فالتكنولوجيا والتدريب والعقيدة العسكرية الأمريكية مصممة لمواجهة التهديد السوفيتي، وليست مصممة لمواجهة التمرد الذي يختلط فيه السكان المدنيين مع المقاتلين في بيئة تتسم بالتعقيد ومجهولة ثقافياً واجتماعياً.

فعلى المستوى الاستراتيجي، يمكن لسوء الفهم الثقافي أن يولّد سياسات تفاقم من التمرد، وهو ما حصل عندما أساء صنّاع السياسة في الإدارة الأمريكية فهم الطبيعة العشائرية للثقافة والمجتمع العراقيين، فقد افترضوا أن الهيكل المدني للحكومة سيبقى قائماً بعد قطع رأس النظام، وعندما فعلوا ذلك وأطاحوا بالنظام، ارتكست السلطة إلى شكلها الأكثر بدائية واستقراراً، إلى القبيلة والعشيرة. من هنا كان التمرد الشّيئي نتيجة لسوء الفهم الاستراتيجي للثقافة العراقية. وعلى المستوى العملي، الافتقار إلى المعرفة الثقافية يمكن أن يؤدي إلى تشكيل رأي عام سلبي، فعدم فهم نظام نقل المعلومات في المجتمع العراقي أدى إلى خسارة العسكرية الأمريكية الفرص للتأثير بالرأي العام العراقي. أما على المستوى التكتيكي، فالجهل بالثقافة يعرّض حياة السكان المدنيين والجنود إلى الخطر، فبحسب مكفيت، "على الرغم من أن فهم الثقافة ليس أولوية عند تطاير الرصاص، إلا أن الجهل الثقافي قد يقتل."⁹

هذه المقدرات والإمكانيات كانت مفقودة في المؤسسات العسكرية، ولمواجهة هذا العجز والخلل، تم ابتكار نظام التضاريس البشرية في العام 2006، والذي أصبح معداً كوسيلة

للوحدات العسكرية لفهم أفضل للثقافة العراقية على المستويين التكتيكي والعملياتي، من خلال إدماج العلوم الاجتماعية وممارستها في الوحدات العسكرية للتخطيط وتوجيه العمليات العسكرية في البيئة العملية. فمنذ البداية، كان هدف برنامج التضاريس البشرية دمج وجهة نظر العلوم الاجتماعية في العمليات العسكرية لممارسة مكافحة التمرد. فالمهمة والقدرات مركزة على دمج معلومات التضاريس البشرية في تخطيط وإعداد وتنفيذ وتقييم العمليات العسكرية.

من هنا، كان التصور المفاهيمي حول تسليح الثقافة والعلوم الاجتماعية (Weaponization of culture and social sciences)، بحسب أحد الباحثين، يمثل نزعة بدأت مع غزو أفغانستان والعراق، وأن هذه النزعة تعتبر أمراً حاسماً في الاستخبارات العسكرية، ففيها تمّ التحوُّل من مقاربة القنابل والأسلحة الذكية إلى استراتيجية بناء الجنود الأذكياء. ولكن ما لم يدركه هذا الباحث، أن هذه النزعة ترجع في أصولها إلى ما قبل الحرب الأمريكية على العراق، بعقود طويلة، وأنها نشأت بنشوء العلوم الاجتماعية وبخاصة الأنثروبولوجيا منذ البدايات، وأن تطبيقاتها العملية ترجع إلى "لورانس العرب"، باعتباره الباحث المقاتل النموذج الذي استرشد به عدد من العسكريين والباحثين الأمريكيين في الحرب على العراق.¹⁰

2. كلاوزفيتز وسحر الحرب

منذ عصر التنوير ومروراً إلى الحداثة، نظر دارسو الحرب من "المفكرين العقلانيين" إليها باعتبارها علماً خالصاً، وقائمة على ما هو ملموس، ويمكن السيطرة على مجرياتها (controllable)، وقابلة للحساب (calculable)، وما يفضي إليه هذا التوجه من القدرة على ترويض عوامل اللايقين والصدفة فيها.¹¹ إلا أن المنظر العسكري وأبا الحرب الحديثة، كارل فون كلاوزفيتز، له رأي آخر لا يقلل من علمية دراسة الحرب وقائم على ثلاثة من المفاهيم التي قام بتقديمها، والتي تشكل مجملها ما يمكن أن نطلق عليه سحر الحرب، ألا وهي الصدفة (Chance)، والاحتكاك (Friction) وضباب الحرب (Fog of War).

تشترك هذه المفاهيم جميعها في توصيف حالة اللايقين وانعدام التوقعات التي تتسم بها الحرب. ويقول أحد الباحثين في هذا الصدد وفي وصفه لمؤلف كلاوزفيتز عن الحرب، بأنه ينظر إلى الحرب على أنها "ظاهرة غير خطية بشكل متأصل، فالسلوك الحربي والعسكري يغيّر شخصيتها بطرق لا يمكن التنبؤ بها تحليلاً،"¹² ولذلك فقدرتنا على التنبؤ بمسار ونتيجة أيّ صراع محدودة بشكل كبير. ويقول باحث آخر إن مؤلف كلاوزفيتز "موجّه نحو تسليح القائد للتعامل مع الصراع الذي لا هوادة فيه مع ما هو غير متوقع ومفاجئ في الحرب."¹³ وتتناول باحثة ثالثة مؤلف كلاوزفيتز من زاوية أنه "ينظر إلى تأثير الصدفة في تخطيط وتنفيذ الحروب، ودورها في صياغة تفكيرنا حولها وفيها. كما يدلل كلاوزفيتز إلى الخصال التي يجب على القادة امتلاكها للتغلب على الصدفة واللايقين."¹⁴

بداية، وفيما يتعلّق بالصدفة، تعامل كلاوزفيتز في تعريفه لها ضمن حدودها القصوى وأكثرها تطرفاً، حيث أتت كتعبير عن الأحداث الاعتبارية التي لا يمكن توقّعها حسابياً، ولا تعتبر طيّبة إحصائياً. كما وتمتاز هذه الأحداث بكونها غير خاضعة لقدرة أيّ كان للتنبؤ بها، وأنها مستعصية على الانتظام في أفعال متسلسلة تعمل ضمن شروط مسبقة. من

هذا الطرح، اعتبر كلاوزفيتز الصدفة هي الدخيل والمتطّفل الذي يسم كل شيء باللايقين، وتدخل في مسارات جميع الأحداث العسكرية.

إلا أنه بالنسبة لكلاوزفيتز ليس بالضرورة أن تنتج الصدفة حالة من اللايقين، فمصادر اللايقين في الحرب متعددة، منها نقص المعلومات والارتباك العسكري، ولا تقتصر على الصدفة، التي يتمحور ارتباطها في اللايقين من خلال الأحداث المتعدّرة تعليلها، والموسومة بالعشوائية نتيجة عدم القدرة على تقصي أسبابها لكونها إما غير ظاهرة أو غير متصلة بتأثيراتها. واللايقين بشكل أساسي ردُّ فعل الإنسان تجاه المجهول أو ما لا يمكن السيطرة عليه كما هو الحال مع الصدفة. من هنا، نظر كلاوزفيتز إلى الصدفة باعتبارها حدثاً محايداً قادراً على توليد احتمالات متعددة وفرص، إما أن يتم استغلالها وتوظيفها بشكل بناء وإيجابي، أو أنها ستحطم أفضل الخطط العسكرية.

وللتفصيل أكثر، يقسم بعض الباحثين الصدفة لدى كلاوزفيتز إلى نوعين: النوع الأول، هو الصدفة التي تأتي نتيجة العجز البشري عن الإلمام بكافة جوانب الحرب وتعقيداتها بكليّتها، أو العمى التحليلي النابع من الجهل والهشاشة والضعف العقلي، وعدم القدرة على فهم وإدراك التفاعلات والعلاقات اللانهائية بين السبب والنتيجة. أما النوع الثاني، فهو نابع من السببية الدقيقة والعلاقة الموضوعية بين السبب والنتيجة التي تتسم بتعقيد بالغ، فأبني سبب صغير جداً يهرب من ملاحظتنا له قد يكون له تأثير كبير لا يمكن تجاهله، حينها نقول إن هذا التأثير يعود للصدفة، ونراه في تناقض مع ما نعرفه مسبقاً من أفكار وتصوّرات من جانب، ومن جانب آخر يمكن أن يُنظر إليها على أنها ناتجة عن الظهور بشكل غير متوقّع متجاوزة رادارنا الإدراكي، الذي سيؤدي بدوره إلى خداع الذات وسوء الفهم. وهو ما يؤكّد عليه كلاوزفيتز بقوله "في الحرب كما هو الحال في الحياة بشكل عام، جميع أجزاء الكل مترابطة، ولذلك فإن التأثيرات التي يتمُّ

إنتاجها مهما كانت صغيرة وتافهة، ستؤثر على العمليات العسكرية اللاحقة، وتعديل من النتيجة النهائية لها.¹⁵

في العموم، وحينما يتعلّق الأمر بالصدفة، يشعر البشر بعدم الارتياح عند ترك الأمور لها، إذ إنهم يحبّون الشعور بالسيطرة على بيئتهم، وأن يكونوا أسياداً على مصائرهم. رغم ذلك، انقسمت الآراء حول الصدفة ومكانتها ودورها في الحرب، وتعامل معاصرو كلاوزفيتز ومن سبقوه بشكل مختلف عنه فيما يتعلّق بها، فمنهم من تعامل معها بشكل سلبي وسعى جاهداً لتقليصها من خلال القواعد والأنظمة العسكرية، أو تجاهلها كلياً وهمّشوا أهميتها. ومنهم من أعلن استسلامه الكامل لها، وانغمس بشكل كامل في قوتها، واعتبروا أن الحرب بكلّيتها تعبّر عن الفوضى، ما حدا بهم إلى استبعاد كل أمل في القدرة على التخطيط الاستراتيجي للحرب، أو إنتاج نظرية ملموسة وصلبة حولها، مما أدى إلى انفصال تام بين الأفكار والواقع.

فبالنسبة للتيار الأول، وهم من منظّر الحرب في عصر التنوير وبدايات الحداثة، فإنهم كانوا على اطلاع كامل على عوامل اللاتيقين وما ينتج عن الصدفة من شك واضطراب، لكنهم ركزوا على ما رأوه مناسباً للتشكيل الفكري العقلاني في حينه. بمعنى أن هذا التيار قام باختزال الحرب إلى اعتبارها نظاماً (System)، وقام بالتركيز فيه على الجوانب العُرصة للحساب الدقيق في مدخلاته ومخرجاته، لذلك فشل منظّروه في التحليل الجدّي للصدفة، ولم يكرّسوا اهتماماً كافياً لها. الأمر الذي جعلهم منطوين تحت شكل من أشكال الإنكار النظري أو ما يطلق عليه اصطلاحاً بالنشاز المعرفي، أي رفض تأمّل ما لا يمكن تفسيره، وتجاوز ما اعتبروه نفيّاً للنظام والتماثل الذي سعوا للكشف عنه. فالنظرية تهتم بما هو قابل للتفسير من خلال قوانين قابلة للملاحظة، ما حدا بهم، من جانب، إلى استبعاد إدماج الصدفة في أنظمتهم الفكرية، والذي شكّل أيضاً نوعاً من أنواع الحتمية المنهجية. أما من جانب آخر، فقد أضحت النظرية مهتمة بشكل حصري بالقوانين الحربية القابلة للتفسير

والتي يمكن إدراكها، ومثال ذلك علم حروب الحصار التي شجعت الاعتقاد بأنه يمكن للنظرية أن تربط نفسها بوصفات رياضية (Mathematical Prescriptions) لا تترك للصدفة مكاناً، تلك الصدفة التي تجعل من الحرب ميداناً للامتوقع.

أمّا التيار الثاني الذي أعلن استسلامه الكامل للصدفة، فهو التيار الرومانسي الذي كان له حصّته من عصر التنوير وبدايات الحداثة. وقام هذا التيار بتصوير الحرب على أنها "فضاء للإرادات المتصادمة، والمشاعر المتصاعدة، واللايقين والارتباك... والتعقيد المتنوع والإرباك والخلط اللامحدودين... هذا الفضاء يمكن السيطرة عليه من خلال عبقرية الجنرال العملية وعزيمته وإرادته الحديدية." ومن الأمثلة على هذا التيار المنظر العسكري الألماني جورج فون بيرينهورست (Georg von Berenhorst)، وما بيّنه حول أن الحرب مصمّمة بشكل بحت ممّا هو ممكن، والاستثنائي واللامتوقع. ويؤكد بأن "الحرب بعيدة كل البعد عن كونها علمية، فهي فوضوية، مهيمَن عليها بما هو عَرَضِي... والجهود للسيطرة عليها، ناهيك عن إنهاء توحشها البدائي وفوضويتها، يعتبر أمراً سخيماً".¹⁶

اعتبار الحرب على أنها فضاءات للإرادات المتصادمة والمشاعر المتصاعدة لا ينفي كونها أيضاً تحمل عوامل مادية وفيزيائية، فالعوامل المعنوية مساوية في أهميتها للعوامل المادية عند كلاوزفيتز. ويقول أحد الباحثين في هذا الصدد إن الحرب لدى كلاوزفيتز "ليست موضوعاً للعوامل المادية التي يمكن عدّها وحسابها، بل هي منصهرة مع العوامل النفسية والمعنوية، والتي لا تعتبر مهمة فقط، بل لا يمكن فصلها عن العوامل الفيزيائية".¹⁷ هذا التوجه يأتي تأكيداً على المسار الذي اختطّه كلاوزفيتز في تعامله مع الصدفة واللايقين، فالحرب بالنسبة له "يجب أن تأخذ العامل البشري في الحسبان... ففن الحرب يتعامل مع القوى الحية والمعنوية، بناءً على ذلك لا يمكن تحقيق مسار الحرب الكامل أو اليقين التام فيها، إذ يجب عليك أن تتيح هامشاً للايقين".¹⁸ إذن، فإن أحد المصادر الرئيسية للايقين لدى كلاوزفيتز هو كون الحرب عبارة عن نشاط بشري،

والقوى البشرية تحمل في طبيّاتها المجهول وما لا يمكن السيطرة عليه أو التنبؤ به، فتحول الحرب إلى حقل اللايقين، لما فيها من تنوع وتغيير مستمر في مساراتها، ما يحول دون القدرة على فرض قوانين إلزامية على الحرب.

أما الطريق الثالث الذي اختطه كلاوزفيتز، فلا يستسلم للصدفة من جهة، ولا يغرق في اعتقاده بقدرة النظرية على تخطيطها من جهة أخرى. ولذلك قام كلاوزفيتز بنقد من تجاهلوا الصدفة ودورها معلناً أن هؤلاء المنظرين العسكريين يركزون على القيم الثابتة، في حين أن كل شيء متعلّق بالحرب يعوزه اليقين، وأن الحسابات في الحرب تتمّ وفقاً لمتغيرات عديدة لا يمكن حصرها بسهولة. من هنا، فإن الصدفة والاحتكاك والعوامل الأخرى في الحرب هي ما يميز الحرب الحقيقية عن تلك الحرب المرسومة على الورق، وإذا ما أرادت النظرية العسكرية أن تلاقى نجاحاً على أرض الواقع وتكون ذات صلة به، عليها أن تضمن تلك العوامل الأساسية والمتغيّرات. ويؤكّد على ذلك بقوله إنه "لا يوجد هنالك نشاط إنساني ترتبط فيه الصدفة وتلتزم فيه التزاماً مستمراً كما هو الحال في الحرب... حيث هنالك تفاعل متبادل بين الإمكانيات (Possibilities) والاحتمالات (Probabilities)، والحظ الجيد والحظ السيء".¹⁹

لكن لا بدّ من التنويه إلى أن آخرين أشاروا إلى الصعوبات التي أرسّتها الصدفة في النظرية العسكرية، ومنهم المارشال الفرنسي ماوريس دي ساكس (Marshal Maurice de Saxe) الذي قال بأن نتائج الحرب والمعارك ستكون معتمدة على شيء من الحظ المتقلّب والصدفة، ولمواجهة هذه الحالة على القادة التحلّي بالشجاعة والذكاء وموهبة الارتجال والقدرة على رؤية الفرصة وكيفية استثمارها واستغلالها. وعلى المنوال ذاته، أدرك الضابط الفرنسي البارون هنري انطوين دي جوميني (Baron Henri-Antoine de Jomini) أن اللايقين والصدفة هي أسباب أساسية للفرق الكبير بين نظرية الحرب وممارستها. ولكن ما فشل فيه الاثنان هو الاعتراف بأن الصدفة لا يمكن النظر إليها كأمر عرضي بالنسبة

للنظرية، بل في الحقيقة هي أمر مركزي فيها، وهو ما تحدث عنه كلاوزفيتز عندما قال إن "القادة العسكريين الناجحين يتكون للصدفة ما لا يمكن التحكم فيه،"²⁰ وأن "فهم دور الصدفة والممكنات يقع على عاتق من تطوف به الروح المبدعة في الحرب."²¹

وهنا لا بدّ من التطرُّق إلى أن كلاوزفيتز في طريقه الثالث الذي خطّه حول الصدفة كان متأثراً بمكيافيلي، والذي اعتبر الأول قارئاً نهماً له، واعتقد أن حكمه في الأمور العسكرية ذو صلة مهمة. فتبسّر ميكافيلي حول الحظ والفضيلة مهّد الطريق أمام كلاوزفيتز لفهم أوسع لدور الصدفة، ومفهوم الصدفة (Chance) لديه يعادله مفهوم الحظ (Fortuna) عند ميكافيلي، وهو يحيل إلى ما لا يمكن قياسه أو توقُّعه، فقد اعتقد ميكافيلي بأن "الوجود المستمر للصراعات والشكوك (Uncertainties) يقوِّب شخصية وطرائق الحرب، حيث لا يوجد فيها مسار آمن ومضمون."²²

وعلى خطى ميكافيلي، لا يخضع الإنسان كليّة للصدفة والحظ، كما لا تهتمّش أهمية الحظ في بلورة مسارات الحرب، وإنما يقترح تسوية قائمة على دور الإرادة الإنسانية في تشكيل المسارات، "فالحظ يحكم نصف أعمالنا، بينما يترك النصف الثاني ليطم السيطرة عليه من قبلنا."²³ هذا المزيج بين الصدفة والإرادة الإنسانية تعكس الازدواجية التي يقترحها كلاوزفيتز، فعلى سبيل المثال، يناقش كلاوزفيتز أنه عندما يوجد عدم اليقين في كفة، يجب الشروع بالشجاعة والعبقرية والثقة بالنفس لتتساوى المقاييس بين الكفتين. وهذا ما أقرّه ميكافيلي عندما فسّر أن الحظ ليس قوة طاغية، وإنما حاله كما نهر متدفق بعنف، يمكن للإنسان أن يأخذ احتياطاته للسيطرة على قوته. ولذلك، يشترك الاثنان في وجوب الوقوف أمام تقلبات الصدفة، وأن على البشر التكيّف والتأقلم مع الأزمنة والأوضاع المتغيرة. وفيما يدعو ميكافيلي إلى استثمار الفرص، فإنه يؤكد على أنه لا يوجد أمر أكثر أهمية في أوقات الحرب من معرفة الفرصة عندما تحصل واستثمارها.

ولاستثمار الفرص، يجب أن يحمل الإنسان خصائص مميزة حتى يتمكن من استثمارها بحسب مكيا فيلي، ومن أهم هذه الخصائص، عند مكيا فيلي، هي الفضيلة، وما يعادلها من العبقرية عند كلاوزفيتز. والسمات المرتبطة بالفضيلة تخضع في عمومها للوصفة الكلاوزفيتزية، من حيث الجرأة والشجاعة والتصميم والحسم، ممزوجة بالحزم والجَلَد التي تلعب دوراً في تحفيز القائد لأن يحسم أمره تجاه القضايا العالقة حسب تقديره. فالقائد الحازم يقيّم المخاطر التي تواجهه ولا يقع فريسة لعداقتها، ولديه القدرة على استدامة الفعل حتى تحقيق الغايات، إلى جانب حضور العقل، والذي يعني وفقاً لكلاوزفيتز الموهبة للاستجابة السريعة في مواجهة الأزمات. وبناءً عليه، فإن كلاوزفيتز ومكيا فيلي يشتركان بالنظر إلى الصدفة على أنها ليست مدعاة وسبباً لليأس، بل قوة صارمة لا يمكن تفاديها من جهة، ويمكن الاستثمار فيها من جهة أخرى، إذ لا تتعلّق سمة العبقرية عند كلاوزفيتز بموازنة اللايقين، بل باستغلالها بشكل فعّال عن طريق المرونة الفكرية، وتمكين القائد من العبور في مستنقع الإرباك واللايقين الذي يهدّد بشلّ قدرته على الاستجابة لما هو طارئ واستثنائي.

والحرب عند كلاوزفيتز ما هي إلا مبارزة بين خصمين يعانيان من اللايقين الناتج عن الصدفة، ولذلك يسعى كل طرف إلى أن يحوّل اللايقين إلى أفضلية له ضدّ خصمه بواسطة العبقرية، وفي هذا تأكيد على الاحتماليات التي تقدّمها الصدفة، وما تقوم به من إعادة ترتيب الفرص لتسمح للإبداع الإنساني أن يطفو على السطح، متحدياً إبداع القائد وقدرته على إحكام السيطرة عليها وتحويلها إلى أفضلية له، فنهاياتها المفتوحة تلهم بالشجاعة والعبقرية التي لا غنى عنها في الحرب. بالمجمل، تلعب العبقرية العسكرية وما يرتبط فيها من فطنة سياسية وتقنيات استخباراتية فعّالة وخبرة قتالية ومعنويات عالية وتدريب صارم، والتخطيط المرن دوراً في ترويض الصدفة واستغلال مناخ اللايقين التي تتّسم بها الحرب.

لكنَّ أحد الباحثين يجادل بأن معالجة كلاوزفيتز للعبقرية تظهر متناقضة في بعض الأحيان، فمن جهة يعطي أفضلية للعبقرية للتعامل مع ما يطرأ على الحرب من لايقين من خلال محو قواعد الاستراتيجية، ومن جهة أخرى يساوي بين العبقرية والبراعة الاستراتيجية المحضة، أي أن العبقرية تقع على النقيض من الاستراتيجية في إمكانية، وفي إمكانية أخرى تعتبر تعبيراً مطلقاً عنها. هذا التناقض الذي يحيط بكلاوزفيتز، يضيف الباحث، ربما نابع من محاولة كلاوزفيتز تجريد العبقرية من الأساطير التي أحاطت بها وتراكت حولها من منظري عصر التنوير وبدايات الحداثة. ففكرة كلاوزفيتز حول العبقرية تعتبر جانباً من تعامله الشامل تجاه النظريات الاستراتيجية التي هيمنت على الفكر العسكري والتي تتسم بالإفراط بالعلموية من إحدى التيارات، والتخفف من العلمية من تيار الرومانتيكية الألمانية من جهة أخرى.

فالتيار الأول، ومن الأمثلة التي تعبر عنه، هو الألماني هنريك فون بولو الذي سعى إلى إخضاع العبقرية والاستراتيجية لعلم الهندسة، وما يتضمَّنُه هذا الإخضاع من منطق استئصال العنصر البشري في الحرب. وبذلك تجاهل هذا التيار العبقرية والقوى المعنوية غير القابلة للقياس لصالح قواعد الفعل الصارمة والقابلة للحساب، والتي في نظرهم ستقود إلى النجاح الاستراتيجي. أما التيار الثاني، الرومانتيكية الألمانية، ومن الأمثلة عليه هنري لويد الذي قام بتقسيم نظريته العسكرية إلى فرعين، الأول علمي ميكانيكي يمكن تعليمه، والثاني حقل العبقرية الذي يتَّسم بكونه غير قابل للتفسير بأيِّ قاعدة أو دراسة أو تجربة، ومن هذا التوجه تم أسطورة العبقرية بعيداً عن القياس، وتم إرجاع كل الاستراتيجية العسكرية إلى العبقرية الفردية العفوية التي لا يمكن تقليدها أو تحليلها، وبذلك تحوَّلت العبقرية إلى أمر متعذَّر التفسير، وظاهرة غير جديرة بالدراسة. وذلك على النقيض مما قدمه كلاوزفيتز من اعتبار العبقرية تأخذ مسار الفعل العملياني المتبلور من التقييم الشامل للوضع العام في الحرب بشكل صحيح، أي أنها نابعة من دراسة وتصميم على الحدِّ من الصدفة واللايقين الذي يشوب الحرب. هذا التأكيد على مَلَكة الحكم إلى جانب

الحسابات الدقيقة هي نتيجة مباشرة لحالة اللايقين المشتقة من الوجود الذي لا مفرّ منه لما هو غير ملموس، ومحاولة كلاوزفيتز لتجاوز الأساطير التي أحاطت بالعبقرية من كلا التيارين سابقى الذكر.²⁴

هذا التفصيل لمفهوم الصدفة لدى كلاوزفيتز، لم يحظَ به مفهوم الاحتكاك وضباب الحرب على الرغم من أهميتهما، ويعود ذلك إلى كون المفهومين يرتبطان بشكل وثيق بمفهوم الصدفة. وبالنسبة للمفهوم الأول، الاحتكاك، فقد تبلور لدى كلاوزفيتز من قراءته الواسعة لأدبيات العلوم الفيزيائية، وخصوصاً العلم الوليد في عصر الديناميكا الحرارية. كما أن هذا المفهوم مصدره مستمد من رؤية المنظرين العسكريين لعصري التنوير وبدائيات الحداثة حول المؤسسة العسكرية والجيش باعتبارها المنطق الرياضي قيد الفعل، وأنها كالات الضخمة تستوفي فيها الأجزاء وظيفتها العامة، دون أن يكون هنالك هدر في الحركة أو تروس زائدة. ومن هذا المجاز قام كلاوزفيتز بتقدير النتيجة المنطقية من خلال مفهوم الاحتكاك الذي قام بتقديمه، فكما الاحتكاك في الميكانيكا الذي يعمل على تقليل فعالية الآلة وأجزائها المتحركة، فإن احتكاك الحرب يعمد إلى تقليل فعالية آلة الحرب، وأجزائها المتحركة، أي الأفراد والجنود، والتي تعود إليهم احتمالية حدوث الخطأ أو سوء الفهم والتقلبات في مسار الحرب، وما يرتبط بها من صدف.

هذه المقاربة التي تنظر إلى المؤسسة العسكرية على أنها آلة، يفعل فيها الاحتكاك ما يفعله بالآلة من حيث تقليل كفاءة المؤسسة ككل، ويعيق النشاط العسكري من خلال عدد لا يحصى من العوارض الثانوية التي تطرأ في الحرب، وتتواجد في ذات المكان التي تتواجد فيه الصدف، وتؤدي في نهاية المطاف إلى تقليل الأداء العسكري العام. من هنا، فإن الصعوبات تتراكم وتنتج نوعاً من الاحتكاك يجعل مما هو بسيط صعباً على الإدراك، ولا يمكن تصويره إلا من خلال الممارسة الفعلية للحرب، فيقول كلاوزفيتز بهذا الصدد "كل ما هو متعلق بالحرب بسيط، لكن أكثر الأمور بساطة هي أكثرها صعوبة، فالصعوبات

تتراكم لتنتج الاحتكاك الذي لا يمكن تصوره إلا إذا كان الإنسان في خضمّ الحرب. حوادث ثانوية لا تحصى والتي لا يمكن التنبؤ بها تجتمع لتخفّض مستوى الأداء، ولتؤدي إلى الوقوع بعيداً عن الهدف المرسوم... فالحرب آلة وكلّ عضوي لا يمكن فصل أجزائه عن بعضها البعض، وحيث كل فعل يساهم بذلك الكل... وكالخبرة والتجربة العسكريتين القليلتين التي امتلكها في أرض المعركة، فإنها تكفي لتعطيني رؤية دقيقة عن جلّ الوقائع التي تتكشف في الحرب، كما هو حال الصدفة التي تلمس كل شيء، والصعوبات العديدة التي تكمن في التنفيذ المتقن للخطط الدقيقة التي تميل النظرية لتشكيلها. ويمكن لنا أن نصوغ الأمر بالاحتكاك في داخل المكائن.²⁵

ولتجاوز الاحتكاك في آلة الحرب، أيدّ كلاوزفيتز نوعاً من التخطيط الذي يهدف لاستيعاب ما يطرأ على مجريات الحرب، آخذاً بعين الاعتبار مقدّرات آلة الحرب وردود فعل العدو في ذات الوقت، لتحصيل قدرة على السيطرة على الأحداث، وتقليل قدرة الاحتكاك وما هو عَرَضِي على التدخّل في مسار الأحداث.²⁶ بناءً على ما سبق، لا يختلف طرح كلاوزفيتز حول ضباب الحرب عن الاحتكاك، بل يعتبره مشتقاً منه ومن الصدفة، فضباب الحرب ناجم عن نقص في المعلومات أو عن تضارب وتناقض فيما بينها ناتج من آلة الحرب، إذ إنه حين يتم جمع المعلومات، يطلُّ على الجيش تحليلها وتفسيرها وفهمها والفعل بناءً عليها. وفي كل هذه العمليات تتداخل الأخطاء البشرية والتعقيدات التي لا تحصى، حيث التضارب نابع من الخوف في الحرب والممزوج بالصدفة، وأمور عديدة لا يمكن السيطرة عليها، من محدودية المراقبة الدقيقة والحجم الكبير للمتغيرات، والتي تعكس كلها المشكلة الأزلية لتحويل المعلومات الى معرفة، والمعرفة الى أفعال، ما يقود إلى رؤية الأحداث العسكرية كما لو كانت أكبر من حجمها، وتؤدي إلى التنافر المعرفي. هذا التشكيك في المعلومات وفقاً للعوامل آنفة الذكر شكّلت بمجملها ما اصطلح كلاوزفيتز عليه بضباب الحرب، فبحسبه كلما عرفنا أكثر فإن هذه المعرفة تجعلنا أكثر لا يقينا، لا أقل.

ويلخص كلاوزفيتز الأمر بكليته بقوله إن "حالة عدم الاعتمادية على المعلومات تشكّل معضلة خاصة في الحرب، فكل الأفعال التي تأخذ حيزاً قيّد التنفيذ، تشبه الضباب أو ضوء القمر، والتي عادة ما تجعل الأشياء تبدو كما لو كانت متنافرة، وأكبر مما هي عليه حقيقة. أيّ كان مخفياً من النظرة الشمولية في هذا الضوء الواهن، يجب أن يتم إدراكه بالملكة والقريحة، أو ببساطة ليترك للصدفة... فجميع المعلومات والافتراضات خاضعة للشك، وحيث تلعب الصدفة دوراً في كل المجالات، ولذلك لا يجد القائد الأمور كما يتوقع... وإذا أخذنا بعين الاعتبار القواعد الحقيقية للمعلومات، التي تتّسم بعدم المصادقية وبأنها عابرة نتيجة التغيرات التي تطرأ على الحرب، سنصل إلى نتيجة مفادها أن الحرب بنية مهلهلة وسهلة الانهيار، والتي ستدفننا جميعاً في حطامها.²⁷

3. من حرب تقليدية إلى مكافحة للتمرد

عند الغزو الأمريكي للعراق، كان السيناريو المرسوم من قبل صنّاع السياسات في البيت الأبيض ووزارة "الدفاع" والجيش الأمريكي قائماً على الترحيب الدافئ والمتوقع من العراقيين لهذا الغزو، إذ سيكون الشعب العراقي ممتناً لتحريره وفقاً لوجهة نظرهم، وأنه سيُنظر للقوات الغازية باعتبارهم محرّرين، ما سيخلق حالة من الارتياح العام. من هذه النظرة، سيشرع العراق سريعاً بإنشاء نظام سياسي ديمقراطي واقتصاد ليبرالي مفتوح، معتمداً في ذلك على السياسيين العراقيين الذين كانوا في المنفى، والذين عند رجوعهم إلى العراق سيوفّرون قيادة وصفت بأنها غير ملوثة أو أقل تلوثاً من نظام صدام حسين. كما تضمّنت الرؤية الأمريكية التركيز على أن القوات الأمريكية استخدمت ضربات دقيقة التوجيه للحدّ من الأضرار في مسيرها باتجاه بغداد، ما سيجعل من تعافي العراق أمراً سهلاً وسريعاً، وسيتمّ توظيف عائدات النفط لتمويل جهود إعادة الإعمار، وستقوم الشرطة

والجيش العراقيين بتأمين الدولة إلى جانب دور المنظمات غير الحكومية والمجتمع الدولي الذين سيقدّمون خبراتهم وأموالهم لتحقيق الاستقرار في العراق.

بناءً على كل هذه التوقعات، اعتقد صنّاع القرار في واشنطن أن جعل العراق مستقراً سيكون أسهل من عملية إزاحة النظام. لكن، لسوء حظ الساسة والعسكريين الأمريكيين لم تتبع الأحداث هذا السيناريو، فالانتقال السياسي السريع وغير المؤلم لما بعد نظام صدام حسين لم يتحقق، وتبخّرت التوقعات سريعاً. فمع سقوط النظام سرعان ما انهيار العراق واختفت القوى الأمنية وانتشر العنف بشكل غير مسبوق، وتصاعدت المقاومة العراقية تجاه جيوش الغزو، وعمّ مناخ من اللايقين السياسي وعدم الاستقرار في العراق.²⁸

ووفقاً لديفيد بترابوس الذي سيُعيّن قائداً للقوات الأمريكية في العراق لاحقاً، فإن الولايات المتحدة الأمريكية "افتقرت إلى فهم تفصيلي حول الدولة العراقية وديناميكياتها منذ البداية، فقد قمنا بإسقاط نظام صدام حسين بخطط عسكرية ومدنية غير ملائمة لجعل البلد مستقراً بعدها".²⁹ كما أن مونتغمري مكفيت، مهندسة نظام التضاريس البشرية الذي سنتناوله في القسم التالي بالتفصيل، ناقشت أنه "كان هنالك إيمان في غير محلّه لدى صانعي السياسات والقرار في الولايات المتحدة الأمريكية بأن هيكل الحكومة العراقية سيصمد بعد إزالة صدام حسين من السلطة، لكن ما كان يفنّده صانعو السياسات هو إدراك أن السياسة العراقية ستنتكس نحو النظام العشائري في ظل غياب نظام البعث".³⁰ وأيضاً بناءً على تقرير للجيش الأمريكي في العراق أقرّ "بأن الوسائل العسكرية الموظّفة من قبل الولايات المتحدة الأمريكية لم تكن كافية لتحقيق الغاية النهائية ألا وهي استبدال النظام العراقي وتأمين النظام السياسي الجديد".³¹

ومع إعلان الرئيس الأمريكي في الأول من أيار 2003 انتهاء العمليات العسكرية الرئيسية وتحقيق أهدافها في إسقاط نظام صدام حسين، رافق هذا الإعلان تزايد ملحوظ في المقاومة العراقية للغزو منذ صيف 2003، فتضاءلت التقديرات الأمريكية التي كانت على درجة عالية من التفاؤل، والتي كانت متمحورة حول إقامة حكومة عراقية قابلة للحياة ليتمّ نقل السلطة إليها، فيما تنسحب قوات الغزو من العراق بأسرع وقت ممكن. بناءً على ذلك، لم يتمّ الأخذ بعين الاعتبار، كما لم يكن متوقعاً، حدوث مقاومة -تمرد، ولذلك لم تتضمّن الخطة الأمريكية الأولية التعامل مع أيّ تمرد، ولم يؤخذ بعين الاعتبار الحالة الأمنية في العراق ضمن هذا التخطيط.

ولكن ظلّ القادة العسكريون والسياسيون الأمريكيون متشبّثين بالإيمان القائل أن ما يواجهونه في العراق من مقاومة ليست نابعة من عدو على درجة عالية من التنظيم

والتسليح، بل من بقايا البعثيين، وأنه صعود مؤقت للنشاطات المعادية والتي لن تؤثر على توجّه القوات العسكرية الأمريكية ورؤيتها للصراع، ما أعاق تطوير استراتيجية عسكرية أمريكية في العراق بناءً على تلك المعطيات للواقع المحلي. وذلك على الرغم من تحذير بعض المحللين الاستراتيجيين الغربيين حول أن القتال في العراق يأخذ شكل حروب الغوار، وأنه في جانب آخر منه يعد صراعاً يسم قوات الغزو بالعجز عن السيطرة عليه، وأنهم يتفاعلون مع ظاهرة نادراً ما يفهمونها ويرونها، وليس ما اعتقد السياسيون ببساطة أنه متعلق ببقايا النظام المهزوم. وكان على رأس من قال إن المقاومة العراقية أمر طارئ، وزير الدفاع الأمريكي في حينه دونالد رامسفيلد، والذي عزا العنف في العراق إلى بقايا النظام البعثي و"فرق الموت" التابعة له، إلى جانب مجموعة من الإرهابيين الذين سيتمّ التعامل معهم بحزم من قبل قوات التحالف.

ونتيجة لفشل سيناريو الحرب الذي استعرضناه، ولتعويض غياب استراتيجية أمريكية لمرحلة ما بعد الغزو، قام الرئيس الأمريكي عام 2004 بإنشاء مكتب التنسيق لإعادة الإعمار والمساعدة الإنسانية وصناعة الاستقرار، والذي اعتُبر مسؤولاً عن تأمين العراق ما بعد الغزو، وبلورة وتطبيق خطة ما بعد الصراع والحرب من خلال قيادة وتنسيق ومأسسة القدرات المدنية والعسكرية للحكومة الأمريكية لأوضاع ما بعد الصراع، وجعل المجتمع العراقي أكثر استقراراً بإعادة بنائه. لكن لم يستطع المكتب الإجابة بشكل مناسب عن سؤال ماذا بعد، إذ اعتُبر عمله هامشياً بالنسبة للأمن القومي الأمريكي، وانعكس هذا التهميش على معاناة المكتب من نقص في القدرات والخبرات والتمويل.

نتيجة لهذا الوضع المتفاقم، يقول أحد الباحثين إن الولايات المتحدة الأمريكية قد كزّرت الأخطاء التي أدّت لهزيمتها في فيتنام في العراق، إذ حوّلت المقاومة العراقية العراق إلى مستنقع للقوات الأمريكية شبيه بالمستنقع الفيتنامي، في الوقت الذي تمّ فيه توظيف استراتيجية تقليدية والتشبّث بها بعناد لمواجهة صراع غير نظامي. إلا أن العسكرية

الأمريكية لم تستطع وضع الوضع في العراق وراء ظهرها كما حصل في تجربتها في فيتنام، التي قامت بتجاهلها لصالح التأكيد على خوض الحروب التقليدية، على الرغم من دعوات بعض الجنرالات للخروج من العراق.

فمثلاً الجنرال الأمريكي جون ابيزيد قد أظهر انعدام الثقة في خطة الحملة الأمريكية، قائلاً إن الوضع في العراق سيء للغاية ولا يمكن الفوز به عسكرياً وإنه يجب علينا أن نخرج من العراق وأن ندع للعراقيين مهمة هزيمة التمرد. وفي أيلول من العام 2005، أي بعد مرور أكثر من عامين على غزو العراق، ناقش القادة السياسيون الأمريكيون بأن الجيش يفتقر إلى خطة واضحة تقود للنصر، وأن الولايات المتحدة الأمريكية غير قادرة على الانتصار في الحرب، فالتمرد لم يتم احتواؤه ولا حتى تحييده، ومساعي إعادة إعمار العراق سياسياً واقتصادياً لم تكن ناجحة. من هنا دعوا بأن الهدف يجب أن يكون تسليم المسؤولية للحكومة والقوات العراقية. من هنا تبلورت استراتيجية قائمة على نقل الصلاحيات والسيطرة على الأرض من القوات الأمريكية إلى تمكين القوات الأمنية العراقية، فالقوات الأمريكية لم يكن باستطاعتها تحقيق هدف إقامة الأمن في العراق. واعتقدت أن وجود القوات الأمريكية في العراق يأتي بنتائج عكسية، من حيث إنه يثير ويحفز المقاومة العراقية. وبذلك أصبح الهاجس الأول للولايات المتحدة الأمريكية هو الكيفية التي يمكن فيها الخروج من العراق، بدلاً من تحقيق شروط الأمن الضرورية لتحقيق الاستقرار السياسي، ولكن كان مآل هذا التوجه الفشل، نتيجة تصاعد المقاومة العراقية يوماً بعد يوم دون القدرة على مجابهتها من قوات الغزو، ما جعل أي تقدم استراتيجي في العراق في مهب الريح.³²

وفي هذا الوقت تشابهت أيضاً الأسئلة ما بين الهزيمة التي منيت بها الولايات المتحدة الأمريكية في فيتنام، والفشل الذي أحاط بها في العراق، ففي معرض تقييمه لأداء الجيش الأمريكي في فيتنام، تساءل الضابط أندرو كريبينفيتش عام 1986: كيف لجيش أقوى أمة على الأرض، مدعوم مادياً بشكل لا مثيل له في التاريخ، ومجهز بالتكنولوجيا الأكثر تعقيداً

في عصر لعبت فيه التكنولوجيا دور إله الحرب... أن يفشل بالخروج منتصراً ضدّ قوة أدنى منزلة بكثير من قوة الجيش الأمريكي؟³³ على ذات المنوال تساءل أحد الباحثين عن السياق العراقي، لماذا إذن، الولايات المتحدة الأمريكية التي تعتبر الدولة التي تمتلك العسكرية الأعلى مهارة والأفضل تجهيزاً والأكثر احترافاً في التاريخ، لديها صعوبة في العراق؟³⁴ ويقول باحث آخر، "مرة أخرى، الدولة الأقوى في العالم منعت من تحقيق أهداف الحرب من قبل قوى تمرد هي الأضعف عسكرياً في دولة نامية كالعراق." ³⁵ أما أحد المؤرخين، فيؤكّد على هذا الفشل بقوله "في العراق، القوة العالمية الكبرى الوحيدة تجد نفسها غارقة في صراع لا يمكن الانتصار فيه. أعظم قوة عسكرية في التاريخ لا يمكنها هزيمة عدو من المتمردين." ³⁶

يعود الفشل الأمريكي في مستنقع العراق إلى عدم توقع الإدارة الأمريكية والقادة السياسيين والعسكريين بإمكانية حدوث مقاومة عراقية متصاعدة، فالمؤسسة العسكرية والجيش الغربية عموماً، والمؤسسة العسكرية والجيش الأمريكي على وجه الخصوص، التي تتسم بالمهنية والتطور التكنولوجي، مدرّبة على تحقيق النصر في حرب تقليدية. وليس من الصدفة أن القوة التي هزمت الجيش العراقي وأخرجت صدام حسين من الحكم في غضون أسابيع قليلة، لم تكن مستعدة لمواجهة المقاومة العراقية على مستوى العراق ككل بعد شهور قليلة من الغزو، إذ إنها لم تكن تمتلك عقيدة عسكرية أو تدريباً أو تحضيرات ضرورية لمكافحة تمرد محتمل. فالخطوط العريضة لاستراتيجية إدارة الرئيس الأمريكي جورج بوش كانت متمحورة حول استئصال أسباب عدم الاستقرار والعدوان تجاه الولايات المتحدة الأمريكية من خلال إزالة الأنظمة التي مارست عدواناً صريحاً تجاهها، وهو يعتبر الجزء الأسهل، إذ إن العسكرية الأمريكية مجهزة لإسقاط الأنظمة، ولكن تكمن المشكلة في جعل الأمم أكثر استقراراً بعد إسقاط الأنظمة أو انهيارها، وعدم وجود مثل هذه التحضيرات ساهمت في جعل الأوضاع العراقية عامة بعد إسقاط النظام في حالة من السوء لا يمكن قياسها لكونها غير متوقعة.

في مقابلة صحفية مع الرئيس الأمريكي عقب إسقاط النظام العراقي عام 2003، قال إن الخبر الكبير أن الولايات المتحدة الأمريكية قد غيّرت طريقة خوض الحروب وتحقيق النصر فيها، وهو ما قام بتوضيحه لاحقاً في خطاب بعد سقوط بغداد، بأنه "بمزيج من الاستراتيجيات الإبداعية والتكنولوجيا المتقدمة، قمنا بإعادة تعريف الحرب لصالحنا... أكثر من أي وقت مضى، دقة التكنولوجيا تحمي حياة جنودنا وحياة السكان المدنيين... وفي هذه الحقبة الجديدة للحرب، يمكننا استهداف النظام وليس الأمة، فهدفنا ملاحقة وضرب المذنبين." هذا النمط من الحروب أشار إليه في وقت مبكر أحد العاملين في وزارة الدفاع الأمريكية عام 1978، عندما قال "بأن لدى الجيش الأمريكي القدرة على رؤية كل شيء مهم في ساحة المعركة، والقدرة على ضرب كل شيء يمكن رؤيته، وقتل كل شيء يمكن ضربه. وبذلك سيتم تجاوز ضباب الحرب من خلال الوعي الظرفي، وتجاوز الاحتكاك من خلال الدقة التامة. مفاهيم الهيمنة المعلوماتية والقابلية للتوقع والتنبؤ بمسار الحرب (Predictability) تعتبران مفاهيم مركزية للحرب الجديدة."³⁷

عرف هذا النوع من الحروب التقليدية المقترنة بالتقنية العالية والمتقدمة لاحقاً بالحروب القائمة على الثورة في الشؤون العسكرية، إذ تبلورت بشكل أساسي في تسعينيات القرن العشرين، وهي قائمة على الاعتماد المتزايد على الأقمار الصناعية والطائرات دون طيار، والاتصالات المتقدمة كالحواسيب ومراكز القيادة والإنترنت، والأسلحة والذخائر المتطورة ودقيقة التوجيه كالقنابل الذكية. وتركز الثورة في الشؤون العسكرية على إمكانية تحقيق المعرفة الكاملة والمهيمنة على ساحة المعركة من خلال إدماج أنظمة شاملة في حرب المعلومات، تمارس فيها القوة من خلال أنظمة الأسلحة المتطورة التي تمتلك مدى أكبر، وقوة فتك ودقة أكبر، توظف جميعها لتحسين الوعي الظرفي للمعركة، وتطور فعالية المهمات العسكرية في ساحة الحرب، ما سيجعلها قادرة على رفع وتبديد ضباب الحرب وإزالة الاحتكاك واللايقين الناجم عن الصدفة.

وكان المثال الأبرز على هذا النوع من الحروب، هو حرب الخليج الأولى، فنجاح عمليات الحرب التقليدية فيها قاد العديد من القادة العسكريين الأمريكيين إلى الخروج باستنتاجات حول طبيعة الحرب المستقبلية، والطريقة الأمريكية الصحيحة في خوض الحروب. حيث أكدت هذه الدروس على الدور المحوري للأسلحة ذات التقنية العالية، والحفاظ على الأفضلية التكنولوجية لصالح الجيش الأمريكي، واستغلال القوة الجوية والاشتباك الدقيق في الحرب. وفي كثير من التحليل المؤسسي العسكري الأمريكي الذي أنجز بعد حرب الخليج الأولى، خرج بخلاصة مفادها اعتبار التكنولوجيا محدداً أساسياً لمسار أيّ حرب مستقبلية. ففي العام 1995، أبدى جنرال أمريكي ملاحظته بأن رقمته أرض المعركة قد عنت نهاية كلاوزفيتز، وما عناه وأحال إليه بنهاية كلاوزفيتز، نهاية خاصيتي الحرب عنده والتي لا يمكن السيطرة عليهما... ضباب الحرب والتي تشير إلى عدم اكتمال المعلومات العسكرية المشتقة من طبيعة المعركة المحيرة، والاحتكاك الذي يشير إلى انعدام قابلية التنبؤ وتوقع مسارات الحرب. فالاعتقاد بأن القدرة الكاملة على السيطرة يمكن تحقيقها في الحرب تعتمد على افتراض مسبق بأن كل من ضباب الحرب والاحتكاك يمكن تجاوزهما بالبراعة التقنية.

ومن أحد أبرز المتحمسين للطريقة الأمريكية الجديدة في خوض الحرب، كان عسكري أمريكي برتبة أدميرال، وهو وليام اوينز. في نظره، تعدّ تكنولوجيا المعلومات والتقنية العالية للأسلحة العسكرية الحديثة بإعطاء القادة العسكريين، ولأول مرة في التاريخ، العلم الكلي لساحة المعركة في الوقت الحقيقي لها، سواءً أكان الوقت نهائياً أم ليلاً، وفي جميع الظروف الجوية. هذه الثورة، كتب أوينز، ستتحدى القول القديم بضباب الحرب والاحتكاك والصدفة، وسيطرتها على ساحة الحرب. وهو ما أكد عليه الكولونيل الأمريكي جون واردين بأن التطور في تكنولوجيا الذخائر تجعل من هذا الاحتمال واقعاً، ويضيف "الأسلحة الدقيقة...تغير طبيعة الحرب من كونها قائمة على الاحتمالات

والممكنات، إلى حرب قائمة على اليقين. حروب الألفية السابقة تعتبر أحداثاً قائمة على الاحتمالات، إذ يهدف كل طرف فيها إلى إلقاء المقذوفات والرجال على الطرف الآخر أملاً لقتل ما يمكن قتله من الطرف الآخر لحثه على التراجع أو الاستسلام. حروب الاحتمالات هذه... كانت غير قابلة للتوقع والتنبؤ بها، مليئة بالمفاجئات، وصعبة على التكميم (Quantify)، ومحكومة بالصدفة، حتى غيرت الأسلحة دقيقة التوجيه كل ذلك، ففي حرب الخليج، علمنا إلى حدّ اليقين أن أحد الأسلحة سيدمر هدفه يقيناً، وبذلك انتقلت الحرب إلى حقل ما يمكن التنبؤ به.³⁸

على عكس هذه الرؤية التي تبلورت في تسعينيات القرن العشرين في الأوساط العسكرية والسياسية المؤسسية الأمريكية، والتي أكّدت بأن المستقبل يدور حول الحروب التقليدية المعتمدة والمبنية على التقنية العالية للثورة في الشؤون العسكرية... فإن ما هو متوقّع للمستقبل ليس حروباً تقليدية بين الدول، بل وبدلاً من ذلك فإن الولايات المتحدة الأمريكية تخوض نوعاً من الحروب هي الأقل استعداداً لها، وهي سلسلة من التمردات الممتدة والطويلة ضدّ أعداء وفاعلين من غير الدول، كما هو الحال في العراق وأفغانستان بعد إسقاط أنظمتها. إلا أن المحافظين الجدد كانوا على إيمان مطلق بالثورة في الشؤون العسكرية، وأن الجيل الجديدة للأسلحة بعيدة المدى والموجّهة باتجاه الأهداف بواسطة مجسّات رقمية يمكن لها أن تدمّر مركز ثقل العدو، وتؤدي إلى انهيار جيشه، ما يعني أنه لم يعد بالضرورة أن تخوض الجيوش الكبيرة معارك استنزاف ممتدة، بل حروب وقائية تتسم بالحسم السريع لتحقيق أهدافها.

وكان من بين المحافظين الجدد المؤمنين بقدرة الثورة في الشؤون العسكرية أن تلبّي مهمة الحرب وأهدافها، وزير "الدفاع" الأمريكي دونالد رامسفيلد، فقد كرّس رامسفيلد في إدارته لوزارة "الدفاع" الأمريكية التصوّر التقني للحرب على حساب الحروب غير النظامية، وعكس عدم قدرته أو رغبته، كما هو حال صنّاع السياسات في إدارة بوش، الاعتراف بوجود نوع

آخر من الحرب في العراق، سمته الأساسية التمرد. فقد نظر رامسفيلد إلى العراق على أنه تهديد تقليدي محض، وأن نظاماً عراقياً سيخرج إلى العلن لتتمكّن الولايات المتحدة الأمريكية من الخروج من العراق بأسرع وقت ممكن.

كما أن العديد من المسؤولين الرسميين الأمريكيين عبّروا عن طبيعة الحرب الجديدة، فأحدهم أقرّ باستخدام القوة الأمريكية في إطار الثورة في الشؤون العسكرية لتغيير مجرى التاريخ في الشرق الأوسط. ومسؤول آخر عبّر عن أن الاستراتيجية الأمريكية قائمة على فكرة أن العراق الجديد الناجح بعد هزيمة النظام، يمكن له أن يشكّل نموذجاً يُحتذى به للعالمين العربي والإسلامي في مجالات التحديث والديمقراطية والرفاه الاقتصادي، وباعتباره أيضاً نموذجاً للقوى المعتدلة في المنطقة. هذه الاستراتيجية الطموحة في إعادة تشكيل الشرق الأوسط استباقياً من خلال الفعل العسكري التقليدي الوقائي المبني على الثورة في الشؤون العسكرية، لم يكن وارداً دون الإيمان بأن العسكرية الأمريكية قد تمكّنت من تحقيق السيطرة التقنية والتكنولوجية التامة على ساحة المعركة، وبأن ممارسة الحرب قد انتقلت إلى حقل ما هو متوقّع وقابل للتنبؤ به (Predictable).

هذا الغرور والصلف الأمريكي قائم على الافتراض بأن نظام البعث يمكن الإطاحة به وإزالته ببراعة جراحية دون المساس بالبنية التحتية، ما سيجعل انسحاب غالبية القوات الأمريكية من العراق سهلاً. ولذلك، وفي اعتناقها لهذه الرؤية، عكس غزو العراق إيمان إدارة بوش بأنها أتقنت هذا النوع من الحروب، وأن الحسابات الضمنية للقرار بالذهاب إلى الحرب كانت تلك الافتراضات البسيطة واللاجدال فيها حول القدرة على السيطرة على الحرب. والافتراض بالقدرة على التنبؤ، جعلت من السياسة العسكرية الوقائية أمراً قابلاً للتفكير سياسياً، بدلاً من كونها تهوُّراً ومغامرة أمريكية.

وخلال عملية الإعداد للحرب وتخطيطها، تمّ تصور العدو كنظام تقني غير حصين وقابل

للتشويش. وفي التأكيد على طبيعته هذه على حساب تحليل العوامل السياسية والثقافية، أدى الأمر إلى عدم توقُّع حدوث مقاومة عراقية صلبة. فحدث ما هو غير متوقع، تمرد على نطاق واسع في العراق ضدَّ القوات الغازية، أظهر حدود الثورة في الشؤون العسكرية والبراعة التقنية في الحرب على العراق، ومحدودية دور التكنولوجيا لمواجهة هذا النوع من الأعداء، إذ إن المقاومة العراقية وجدت طرفاً لنفي أفضلية القوات الأمريكية التكنولوجية، وطرفاً لإلحاق الأذى بها من خلال تكتيكات تنتمي إلى الحروب اللامتكافئة، رفضت فيها المقاومة العراقية مواجهة القوات الأمريكية ضمن شروط الأخيرة، إذ انغمست المقاومة ضمن بيئتها الاجتماعية فكان من الصعب التمييز بين المقاومين والمدنيين. وبذلك خيم ضباب الحرب على الساحة العراقية بعيد انتهاء جولة القتال التقليدية، وعم الاحتكاك في كل مكان، مستمداً وجوده من قدرة المقاومة العراقية الإنسانية التي استجابت بشكل خلاق وغير متوقع وبما لم يكن ممكناً التنبؤ به لحدث الغزو.³⁹

فشلت الحرب التقليدية بما تنطوي عليه الثورة في الشؤون العسكرية من التعامل مع اندلاع مستنقع شديد العنف في العراق. فمعظم التشكيلات العسكرية الأمريكية كانت مدربة على خوض حرب تقليدية تتعامل مع النيران الكثيفة كحلٍّ لمواجهة التمرد الآخذ بالازدياد، وكانت الاستجابة الأولية تجاه التمرد تأخذ شكل عمليات "ركل الأبواب" والمسح الأمني التي كانت تأتي بنتائج عكسية لما تراكمه من سخط من قبل العراقيين الذين أدركوا أن أمن القوات الأمريكية جاء على حساب أمنهم. ومع نهاية العام 2006، أدرك الرئيس الأمريكي جورج بوش أن الحرب على العراق حرباً خاسرة، وبناءً عليه كان لابد من تغيير الاستراتيجية الأمريكية إذا ما أرادت الولايات المتحدة الأمريكية أن تعكس أحوال الحرب لصالحها، فقام بداية باستبدال وزير "الدفاع" الأمريكي دونالد رامسفيلد وعيّن عوضاً عنه روبرت جيتس، وسعى أيضاً إلى البحث عن قيادة عسكرية جديدة، ووجد ضالته في الجنرال ديفيد بترابوس الذي كان مسؤولاً عن تطوير عقيدة واستراتيجية مكافحة التمرد في العراق.

شكّل اختيار بترايوس نقلة نوعية في الاستراتيجية الأمريكية لخوض الحرب، فمن تصور المحافظين الجدد للحرب في القرن الحادي والعشرين التي يجب أن تخاض بأسلحة متطورة تحت شعار الثورة في الشؤون العسكرية، وباستخدام ذخائر دقيقة التوجيه لتدمير العدو عن بعد... إلى مكافحة التمرد التي تحوّلت الحرب بمقتضاها إلى حرب بين الناس، وحرب على كسب ولائهم ومساندتهم للقوات الأمريكية، إلى جانب ما تتطلبه هذه الحرب من القيام بمهام شرطية ونشاطات بناء الأمة وتوفير الأمن والحاجات الاقتصادية الأساسية، التي كان المحافظون الجدد يتحاشونها.

جاء تبني المحافظين الجدد لطريقة بترايوس في الحرب، بعد الفشل والكارثة الاستراتيجية للحرب على العراق، فقد كان واضحاً أن إسقاط النظام في العراق كان البداية للصراع السياسي. وبذلك رأى المحافظون الجدد في بترايوس رجلهم لتجاوز هذه الكارثة، وتحول إلى وجه الحروب الجديدة والممتدة وباعتباره شخصية بطولية مرسل من الولايات المتحدة الأمريكية لترويض الجماهير الجامحة والخطرة على بعد آلاف الأميال من الولايات المتحدة الأمريكية. بالنسبة للعقل الاستعماري، فإن الأكثر أهمية بالنسبة له هو القول إنه "يعرف السكان المحليين"، وهذا الادّعاء يتضمّن أمرين اثنين: الأول أن السكان المحليين بسطاء، والثاني أن فهم السكان المحليين يمشي يداً بيد مع السيطرة عليهم، فالفهم شرط مسبق للسيطرة، والسيطرة تُمأسس دليلاً كافياً على الفهم. وطريقة الحرب التي خاضها وأسس لها بترايوس في العراق تشبه إلى حدّ كبير حروب الإمبراطوريتين الفرنسية والبريطانية غير النظامية والاستعمارية في المستعمرات ضدّ السكان. وبناءً عليه، تمّ الترويج للحرب الأمريكية على العراق بأنها تمتلك غايات أخلاقية باعتبارها مهمات تحضيرية كبرى تنحو منحى مشاريع الهندسة الاجتماعية التي لا مثيل لها في الحقبة الحديثة، والمقودة بالأيديولوجية الليبرالية والنيوليبرالية التي أخذت فيها الإمبريالية الجديدة عنوان إعادة الإعمار في العراق.

ولإنجاز هذا التحوُّل، أخذ السياسيون والعسكريون الأمريكيون سنوات عديدة حتى قاموا بإدخال تعديلات على الاستراتيجية الأمريكية، وتطبيق استراتيجية مكافحة التمرد التي منعت الوصول إلى حالة الهزيمة المطلقة للولايات المتحدة الأمريكية في العراق. فالعقيدة العسكرية الجديدة لمكافحة التمرد نُظِر إليها على أنها مُنتج عصرها، ألا وهو فشل الحملة الأمريكية في العراق وهزيمتها، وما رافق ذلك من دعوات شعبية أمريكية ومؤسسية عسكرية لعدم تكرار سيناريو فيتنام. وبذلك، فإن المساهمة الحقيقية للعقيدة العسكرية الأمريكية الجديدة سمحت للأمريكيين بالنظر إلى الحرب كأبيّ شيء عدا كونها هزيمة وطنية، ما ساهم في إسكات أصوات المعارضة للحرب في المشهد السياسي الأمريكي.

وبحسب أحد الباحثين فقد مرَّ تبنيّ القوات الأمريكية لاستراتيجية مكافحة التمرد الجديدة في العراق بأربع مراحل: الأولى، حالة من النكران، وهي التي امتدت منذ سقوط النظام حتى أبريل لعام 2004. في هذه المرحلة، أنكر صنَّاع السياسات في الولايات المتحدة الأمريكية وجود تمرد في العراق رغم تصاعد المقاومة، وغابت فيها أيُّ خطة أو استراتيجية عسكرية لممارسة عمليات مكافحة التمرد. بل وعلى النقيض من ذلك، تمَّ استخدام القوة المفرطة تجاه "العدو"، والتي قادت في نهاية المطاف إلى تحييد السكان العراقيين وخسارة دعمهم لقوى الغزو.

والمرحلة الثانية، والتي عنونها الباحث بمنحنى التعلُّم، امتدت من العام 2004 حتى نهايات صيف 2005، تمَّ فيها الاعتراف المتنامي والمتزايد بوجود تمرد في العراق، وتمَّ العمل على تخطيط استراتيجية لمكافحة التمرد قائمة على أولوية إعادة بناء قوات الأمن العراقية. مع ذلك، ظل التحيز إلى استراتيجية القضاء على العدو حاضراً وبقوة خلال هذه الفترة. وفي أواخر العام 2005، تمَّ الاعتراف بالسكان العراقيين باعتبارهم مركز ثقل الحرب.

وفي المرحلة الثالثة التي كان عنوانها فهم وتقدير مكافحة التمرد، والتي تبلورت في نهايات العام 2005، تضمّنت تدريب القوات الأمريكية على إدماج بعض مبادئ مكافحة التمرد في عملياتهم العسكرية، مع التأكيد المتزايد على أهمية التعامل مع السكان المحليين العراقيين. هذا التوجه انعكس فيما سمي بـ "الاستراتيجية الوطنية لتحقيق النصر في العراق"، والصادرة عن الإدارة الأمريكية في تشرين الثاني 2005، والتي وضعت مقولة (Clear, Hold and Build) كحجر أساس للمسار الأمني الذي سيفضي للنصر في العراق. ويمكن تلخيص هذا المسار بالآتي: الهدف هو تطوير القدرات العراقية لتأمين دولتهم، مع الاستمرار في حملة لهزيمة التمرد وتحييد المتمردين. ولتحقيق هذه الأهداف، سيكون على الأمريكيين مساعدة الحكومة العراقية في مسح المناطق من سيطرة المتمردين ومنعهم من الحصول على ملاذات آمنة، ومن ثمّ الإمساك بتلك المناطق المحررة لتبقى تحت سيطرة الحكومة العراقية. وأخيراً يتمّ بناء القوات الأمنية العراقية وقدرات المؤسسات المحلية لتأمين الخدمات الأساسية وتحقيق سيادة القانون.

أما المرحلة الرابعة والأخيرة، فتتمحور حول تطبيق استراتيجية مكافحة التمرد في العراق، والتي نصّ عليها كُتَيْب عقيدة مكافحة التمرد الصادر في كانون الأول 2006، والذي واكبه تولّي ديفيد بترايوس قيادة القوات الأمريكية في العراق، وزيادة في عديد القوات المتموضعة فيه. وتمركزت استراتيجية مكافحة التمرد أساساً على الأدعاء بتوفير الأمن للسكان العراقيين، ومحاولة منع العنف الطائفي، والبدء في عملية بناء الأمة وإعادة الإعمار. والخلاصة التي يمكن أن نخرج بها هي أن القادة العسكريين الأمريكيين أدركوا متأخراً أنه لا يمكن الفوز في الحرب على العراق عسكرياً من خلال اصطياد المتمردين، بل من خلال تبني منظور يركز على أمن السكان وتطوير الحكومة المحلية وقدرات القوات الأمنية العراقية. هذا التحول من العمليات العسكرية التقليدية لعمليات مكافحة التمرد، ليس تعبيراً عن تغيير في طريقة العمل فقط، بل نقلة تؤكد على مجموعة جديدة من الأهداف

الاستراتيجية. ونتيجة لذلك، فإن هامش النصر مقيس بصيغة مغايرة لحروب الماضي، إذ إن ولاء وثقة السكان قد أصبحت هي الحكم النهائي للنجاح.⁴⁰

ولا بدّ من الخوض بشيء من التفصيل عن المرحلة الرابعة وذلك حتى نستطيع حياة فهم أوسع عن الانعطاف الثقافية في الحرب على العراق وموضعها في سياقها. بداية، تعود جذور مكافحة التمرد الأمريكية إلى تجربتي كل من الإمبراطوريتين الفرنسية والبريطانية في مستعمراتها. فقد لعبت هذه الإمبراطوريات الأوروبية، ولاحقاً الإمبراطورية الأمريكية، دوراً في تحويل المعرفة إلى سياسات إمبريالية، لتقدم إمكانية فهم وتصور الفضاءات غير المعروفة بهدف غزوها والسيطرة عليها. وتنطوي مكافحة التمرد تحت عنوان الحروب غير النظامية، والمفهوم الأخير يشير إلى طريقة عمل الخصم الضعيف في الحرب، باعتبارهم فاعلين من غير الدول ولا يمتلكوا احتكار استخدام القوة والعنف. وتتمركز فاعليتهم في الطرق غير التقليدية للحرب كالهجوم المباغت وتكتيكات حروب الغوار والإرهاب بهدف تحقيق أهداف سياسية. ويعرفها آخرون باعتبارها "تلك الحرب التي هدفها الحفاظ على أو تقويض... مصداقية و/ أو شرعية... السلطة السياسية من خلال تطبيق مقاربات غير مباشرة ووسائل غير تقليدية لهزيمة العدو، بواسطة التخريب والاستنزاف أو الإنهاك بدلاً من الأفعال العسكرية في مواجهة مباشرة... يتم فيها توظيف كل الإمكانيات العسكرية لتحقيق أفضلية اللاتكافؤ في سبيل تقليص قوة العدو وتأثيره وإرادته... والحرب غير النظامية هي الحرب التي تدور حول الأفكار والتصورات، تخاض معاركها بين الناس، ويتم تحديد نتائجها من خلال دعم الناس."⁴¹

وتقسم مكافحة التمرد كنوع من أنواع الحروب غير النظامية إلى مدرستين: الأولى فرنسية، والثانية بريطانية. أما بالنسبة للأولى، فتعتبر كتابات ديفيد جالولا، الضابط الفرنسي الذي شارك في الحرب الفرنسية على الجزائر، حجر الأساس والزاوية للكُتَيْب الأمريكي لـ **عقيدة مكافحة التمرد الصادر في العام 2006**. واعتبر ديفيد جالولا أكثر

المنظرين العسكريين نفوذاً لدى مؤلّفي الكُتَيْب الأمريكي، فتعريفه النظري للتمرّد ومكافحته يعتبر معياراً ذهبياً يضيء على الطبيعة السوسيو-سياسية للتمرّد، ويصف الحل السياسي له بمفاهيم عسكرية. وعندما كانت قوات الولايات المتحدة الأمريكية تواجه حالة عملية ومفاهيمية محيرة في الوضع المتدهور في العراق، حينها قدّم جالولا أفكاراً طازجة حول كيفية تحقيق النجاح العسكري في بيئة تتسم بالاضطراب والإرباك، وذلك على الرغم من فشل الاستعمار الفرنسي في الجزائر.

لكن من الجدير ذكره أن تجربة الضباط الفرنسيين كجالولا رشحت عن ممارسة عملية فرنسية، فكتاباتهِ بالكاد تتسم بالابتكار، فهي تستند إلى تجربة فرنسا الاستعمارية في الحروب غير النظامية ومكافحة التمرّد التي يزيد عمرها عن قرن من الزمان. ولا بدّ من الإشارة إلى أن مدرسة مكافحة التمرّد المتمركزة حول السكان في عمومها تعود إلى القرن التاسع عشر والاستعمار الفرنسي للجزائر، ويُنظر إلى توماس بيجويد باعتباره المؤسس لهذه المدرسة، إلى جانب كل من جوزيف غاليني وهوبرت ليوتيه. فالأول شارك في عمليات تحييد الجزائر بين عامي 1830-1862، والتي شكّلت اختباراً لاستراتيجيته المزدوجة في الإكراه والتكثيف، والقائمة على استخدام محاربي بعض القبائل الجزائرية من قبل الضباط الفرنسيين في العمليات العسكرية ضمن مبدأ "فرّق تسد"، الذي عطلّ التضامن الإسلامي لعدد من القبائل.

وقام بيجويد، كجزء من التدابير الهجومية المساندة، بتأسيس مكتب العرب، وهو بنية تنظيمية عسكرية تجمع الاستخبارات حول العدو المحتمل، وتساعد في تطبيق القانون ومعاينة داعمي المتمرّدين، وإرهاب شرائح سكانية تعتبر حيادية في الوقت الذي تكافئ فيه داعمي وأنصار الجيش الفرنسي.⁴² وقال المسؤول عن مكتب العرب في حينه "على الضباط في مكتب العرب أن يفهموا ويتحدثوا بلغة السكان المحليين، كما عليهم تحصيل معرفة حول البلد من خلال دراسة العادات والقوانين، إلى آخره... ومهمة مراقبة القادة

المحليين مهمة حساسة محصورة بالضباط المسؤولين عن الشؤون العربية. ولتحقيق النجاح، عليهم ألا يترددوا في وضع أنفسهم بين السكان، وزيارة الأسواق والقبائل والاستماع لشكاوى السكان المحليين.⁴³ وفي رسالة لأحد الضباط الفرنسيين حول حروب بلاده الاستعمارية في الجزائر، قال فيها "إن الغزو لا يمكن تحقيقه بضربات عظيمة، بل كانتشار بقعة الزيت في متواليه الخطوة بخطوة، وبالاعتماد على العناصر المحلية وتوظيف النزاعات بين القبائل. ولذلك فإن العسكرية تنحو منحى إقامة السيطرة على السكان وكسبهم إلى جانبها، ليس فقط من خلال توفير الحماية، بل تمتد أيضاً إلى المساعدات الصحية وإنشاء الأسواق والتأكيد للقادة المحليين على أن فرنسا ستتمسك بسلطتهم التقليدية."⁴⁴ وبذلك يخرج أحد الباحثين بخلاصة مفادها أن "عقيدة مكافحة التمرد المتمركزة حول السكان ولدت في الجزائر، وتطورت في مناطق أخرى، وصدّرت إلى أمريكا، وأن التركيز على السكان في الحروب المعاصرة يعود عموماً إلى مؤلفات الضابط الفرنسي ديفيد جالولا.⁴⁵

ولكن ماذا يعني التركيز على السكان في الحروب المعاصرة عموماً، والحرب الأمريكية على العراق، خصوصاً؟ وما هي مضامين مكافحة التمرد المتمركزة حول السكان، في مقابل شكلها الآخر، أي مكافحة التمرد المتمركزة حول العدو؟ بالنسبة للأخيرة، فإن الهدف الأساسي لها تدمير العدو بدلاً من الاشتباك مع السكان الذين يشكلون بيئة عمل العدو. وبالمفاهيم العسكرية الاستراتيجية، هزيمة العدو تتم من خلال إبادة العدو في ساحة المعركة، أو الإنهك النفسي من خلال الاستنزاف، وقتل القادة العسكريين من خلال القتل الموجه. وبذلك يكون هدف مكافحة التمرد المتمركزة حول العدو هي هزيمة العدو أولاً ويتبعها لاحقاً بقية الأهداف. ولهذا السبب ينظر إليها على أنها حرب تقليدية أكثر من كونها حملة لمكافحة التمرد. أما بالنسبة لمكافحة التمرد المتمركزة حول السكان، فهي تركز على السكان باعتبارهم البحر الذي يسبح فيه المتمردون، وتنطوي على فكرة أنه إذا ما تمّت السيطرة على السكان وبيئتهم بشكل كافٍ، سيُحرم المتمردون من

الدعم، ما سيؤدي في نهاية المطاف إلى إنهاء التمرد. بمعنى، أنها عمليات تركز على حفظ وتعزيز أمن السكان بدلاً من القضاء على العدو بشكل صريح، فالهدف هو حياة ثقة السكان والتركيز على قاعدة التأييد الشعبي من قبل قوى الاحتلال. وتحقيق النصر في هذه المقاربة بالنسبة لجالولا قائم على عزل المتمردين عن السكان، وهذا العزل يجب أن يكون من بيئتهم المحلية لا من خلال قوى خارجية.

ولتحقيق ذلك، تتكوّن هذه المقاربة من عدد من الطبقات لتحقيق ما يسمى بكسب عقول وأفئدة السكان، الأولى، الاستخدام المقيد للقوة لتفادي الإصابات في صفوف المدنيين وبما لا يقوِّض جهود مكافحة التمرد القائمة على هدف استمالة السكان لصالح العمليات العسكرية. والثانية، تتعامل مع المظالم الشعبية من خلال مشاريع إعادة الإعمار الاقتصادية والاجتماعية، والتي تساهم في بناء شرعية الدولة. والطبقة الثالثة، هي الفعل الموجّه باتجاه المتمرّدين، وينطوي هذا الفعل على عدد من الأشكال، منها تأمين السكان من هجمات المتمرّدين، وتوفير قوات عسكرية كافية لحماية السكان وطرد وتدمير المتمرّدين، وموضعة القوات في المراكز السكانية، والقدرة على جلب معلومات استخباراتية لتمييز المتمرّدين عن السكان، وتطوير القدرات العسكرية للدولة المضيفة. أما الطبقة الرابعة، فهي الأفعال غير المباشرة والموجهة اتجاه المتمرّدين، وتتكوّن من بناء شرعية الأمة المضيفة وهيكلها الإداري، والعمل على تقويض مظالم المتمرّدين من خلال الفعل السياسي الفعّال، وعقد الانتخابات وبناء مؤسسات سياسية فعالة، وتطوير علاقات شراكة متينة مع الأمة المضيفة. والطبقة الخامسة والأخيرة، فهي قائمة على التفاعل مع السكان المحليين، وتتضمّن تطوير وعي ثقافي وفهم أساسي حول السكان، وتطوير التعاون بين السكان وقوى مكافحة التمرد من أجل تحسين العمل الاستخباراتي، وتجنب التكتيكات القاسية التي ستؤدي إلى تحييد السكان.

وبذلك تمتاز مكافحة التمرد المتمركزة حول السكان بثلاث سمات أساسية تميّزها عن الحروب التقليدية: أولها، أن ترى القوات العسكرية القضايا السياسية من وجهة نظر السكان المحليين. وثانيها، أن العسكرية الغربية تفهم قيمة ومغزى القوة، وكيف أن القوة المفرطة حتى ولو كانت مبرّرة، يمكن لها أن تقوض الدعم الشعبي لمكافحة التمرد. وثالثها، تحول مركز الثقل العملياتي والاستراتيجي من العدو إلى السكان.

أما المدرسة الثانية لمكافحة التمرد، مدرسة الإمبراطورية البريطانية وتجاربها في مكافحة التمرد في مستعمراتها، والمثال الأبرز عليها كتاب **الحروب الصغيرة** لتشارلز كولويل المنشور في العام 1896، إذ يعتبر من القراءات المطلوبة في الكليات العسكرية الغربية، وينظر إليه من قبل المؤرخين على أنه نقطة البداية لتاريخ المقاربة البريطانية لمكافحة التمرد، إذ تضمّن الكتاب عدداً واسعاً من الأمثلة المستمدة من تجارب وخبرات الإمبراطورية البريطانية في مستعمراتها. وعلى الرغم من أن لدى كولويل القليل مما يقوله حول مقاربة العقول والأفئدة، حيث كان يركز على إرهاب الخصم والاستيلاء على أكثر الأشياء قيمة بالنسبة إليه، إلا أنه تناول الحروب الصغيرة باعتبارها حملات عسكرية تُستثنى منها المواجهة النظامية بين خصمين نظاميين. وعلى القوات النظامية توظيف طرق غير نظامية، وذلك بتكييف المبادئ العسكرية وفقاً لطبيعة العدو. كما أنه دعا إلى ممارسة وخلق التأثير المعنوي والأخلاقي في أرض المعركة بدلاً عن الهزيمة التامة للقوات غير النظامية. فالهدف من الحكم الاستعماري إقامة علاقات صداقة مع السكان، ووضعهم في صورة قوة الإمبراطورية لكسب إرادتهم وثقتهم، بما يُمسّس لإقناع السكان بخير القوة الإمبريالية والاستعمارية ومشروعها.⁴⁶

هذه التجارب آنفة الذكر، انعكست على الطريقة الأمريكية في خوض مكافحة التمرد، إذ إن انشغال الولايات المتحدة الأمريكية بمكافحة التمرد المتمركزة حول السكان أتى متأخراً عن القوى الإمبريالية الأوروبية. فلم توجد عقيدة صريحة لمكافحة التمرد أو حروب الغوار، إلى أن نشر سلاح مشاة البحرية كُتِّب **الحروب الصغيرة** في العام 1940، وأبرز ما جاء

فيه حول التمرد ومكافحته "إن الحافز وراء الحروب الصغيرة ليس الدمار المادي... إنه غالباً مشروع يتعامل مع التطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للناس... هذا يعني دراسة جادة للناس، وتطورهم العرقي والسياسي والديني والعقلي."⁴⁷

مع ذلك، حاول بعض الباحثين في بدايات القرن العشرين معالجة غياب عقيدة عسكرية أمريكية واضحة للحرب المتمركزة حول السكان. ففي عام 1910، قام الكولونيل الأمريكي روبرت بولارد بالالتفات إلى الحروب غير النظامية في مقال له، مشدداً على، وناقلاً الاهتمام من الجندي كصانع للحرب، إلى الجندي صانع السلام. وكما شدد الكولونيل هاري سميث في دراسة له حول الحروب غير النظامية على أهمية السكان، ليس فقط في بيئة العمليات، بل في السياق المحلي أيضاً، وأكد على أهمية العوامل النفسية في التأثير على مجريات العمليات العسكرية. على نحو شبيه، قام الأمريكي هارود اتلي في دراسة له عام 1931 بالتأكيد على تجنب قتل غير المقاتلين، وعدم الإضرار وتدمير ممتلكاتهم، أو إعادة ترحيلهم، لأن ذلك سيقود السكان المحليين إلى الوقوف في وجه القوات الغازية.

ولعلّ المساهمة الأبرز أتت من الرائد في سلاح مشاة البحرية الأمريكية إيرل أليس في العام 1921. ففي مقال منشور له بهذا التاريخ، قام بإرساء الأساسات المعيارية لمكافحة التمرد المتمركزة حول السكان، حيث ميّز خلالها التعقيدات اللانهائية وغير المتوقعة التي يتسم بها أيّ تمرد. وبناءً عليه قام بإعطاء وصف منهجي للصعوبات التي تواجه القوات الغازية والتي لا تنحصر فقط في المقاومة المسلحة، بل تشمل في جزء منها التعامل مع السكان المحليين باهتمام، وتجنب، و بكل الطرق، تدمير ممتلكاتهم وقتلهم حتى لا تخسر القوات العسكرية شرعيتها في عيون السكان. وبشكل عام، فإن مقارنة أليس أكدت على ضرورة التدمير الفيزيائي للعدو دون خسارة وتنفير السكان من العمليات العسكرية. وشكلت أطروحته النواة لما بات يعرف بمنهجية Clear-Hold-Build.⁴⁸

4. الانعطاف الثقافي: محاولة نزع السحر عن الحرب

بينما استعر النقاش حول إذا ما كان على الولايات المتحدة الأمريكية الاشتباك بحرب ممتدة لا نظامية وغير تقليدية، لا يبدو أن هنالك أي نقاش حول عما هو مطلوب في هذه الحرب، فهناك ما يشبه الإجماع عليه، وهو الوعي الثقافي بمسرح العمليات. يقول أحد الباحثين بأن الغرب عموماً يظهر ميلاً معتاداً لمحاولة عكس سيطرته في الفضاءات غير المألوفة وغير المعروفة، وجهوده في هذا المجال صاحبه مبادرات متنوعة مصممة لتوليد فهم حول هذه الفضاءات. ولذلك فإن المحرك لفهم العدو والسكان والمجتمعات وثقافتهم نابع من انشغال فكري وعملي لمن يمارسون الغزو، وأن رغبة الفاعلين العسكريين لتحقيق فهم للمجتمعات المحلية، لثقافات وسلوكياتها، لشكل تنظيمها السياسي وبنى القوة والشخصيات، هي تعبير عن محاولة طموحة لممارسة الهيمنة والسيطرة والتأثير والهندسة الاجتماعية على هذا المجتمع الذي يقاوم آثار الغزو، بدواعي تحقيق الاستقرار فيه.

ومنذ خريف العام 2003، والذي كان فيه التمرد في العراق أخذاً بالتصاعد، أصبح القادة العسكريون وصنّاع السياسات في الإدارة الأمريكية مدركين بشكل متزايد بأن تصاعد العنف في العراق له بعد ثقافي. وبينما تخللت مفردة "الثقافة" الأكاديمية في حقول الأنثروبولوجيا والإنسانيات، جنباً إلى جنب مع استخدامات الحياة العامة، فإن مفهوم الثقافة أُعطي حياة جديدة في الاستراتيجية العسكرية الأمريكية في القرن الحادي والعشرين. فبين عامي 2001 (بداية الحرب على أفغانستان) و2011 (الانسحاب الرسمي للقوات الأمريكية من العراق)، انتقلت العسكرية الأمريكية من عسكرية لا توجد فيها سياسات معترف فيها أو موحدة تجاه الثقافة، حيث مفردة "الثقافة" لم تكن من مفردات الحرب... إلى الثقافة باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من الاستراتيجية والتكتيكات والتدريب العسكري الأمريكي، إذ أصبحت مفردة الثقافة كلمة طنانة في أروقة صناع القرار العسكريين والسياسيين الأمريكيين.

ومن هذا الوعي، تحوّلت الحرب بناء على ذلك إلى ما هو متجاوز للفعل العسكري المحض، إذ تتكوّن أيضاً من الحاجة لبناء تأثير سياسي على السكان المحليين، ولكن هذا التأثير يحتاج إلى فهم مناسب لطبيعة المجتمع وثقافته. هذا التحوّل المطلوب ناجم من طبيعة الاشتباك العسكري غير المسبوق في القرن الحادي والعشرين، إذ تمحورت الجهود في العقد الأخير حول زيادة الفهم الثقافي وإدماج المعرفة الثقافية في العمليات العسكرية الأمريكية، وتثقيف وتعليم الجنود حول ثقافة العراق، ودعم الأبحاث السوسيو-ثقافية، ودمج أكاديميين من العلوم الاجتماعية في العمليات العسكرية الأمريكية، وهو ما اصطلح عليه بالانعطاف الثقافية.

وكان المحرك وراء هذه الانعطاف الاستجابة للفشل والقصور في الحرب الأمريكية على العراق، والذي تطلّب الشروع بعمليات مكافحة التمرد التي تتطلب وعياً مهماً وبارزاً بثقافة المجتمع العراقي، والنحو منحى صقل فهمهم لتعقيدات العشائر والقبائل والعادات والتقاليد العراقية، بهدف تحقيق إدراك أفضل للعلاقة بين الطريقة التي يقاتل فيها العدو من جهة، والتقاليد والهويات والدين والذاكرة الجمعية والتصورات من جهة أخرى. وبذلك أتت الانعطاف الثقافية في الفكر والممارسة العسكرية الأمريكية لمواجهة اللايقين والشك المتأصلين حول كيفية خوض حرب في سياق يستعصي فيه تصنيف العدو (Categorization)، وتستعصي فيه القدرة على تعريفه وتحديده (Identification)، فعلى عكس الحروب التقليدية التي يكون فيها العدو واضحاً في المعركة، فإن العدو في الحرب على العراق يتميّز بوجوده الشبهي، والتقلب بين الوجود (Presence) والغياب (Absence)، وبين الخفاء (Invisibility) والتجلي (Visibility)، فالعدو يظهر من بين السكان ويختفي بينهم مجدداً. ومن أجل التصدي لهذا اللايقين فإن جهوداً شاملة قد خيضت لإدماج الثقافة في التخطيط والعمليات العسكرية، وهو ما اعتبر الإجابة عن الفشل في مسرح العمليات العراقي.⁴⁹

ففي أيلول من العام 2003، أخبر قائد قوات التحالف في العراق الجنرال ريكاردو سانشير النيويورك تايمز "أن النقص في المهارات اللغوية والخبرات الإقليمية بين القوات الأمريكية جنوداً وقادة، أدى لعدد من الأخطاء التي ساعدت في إذكاء نار التمرد. فالموت العرضي للمدنيين على الحواجز وفي المظاهرات، والتدمير الذي طال المساجد والأماكن المقدسة الأخرى، والتعامل الخشن مع العائلات، وعمليات التطويق والتمشيط العنيفة، والدخول عنوة لبيوت العراقيين، والتفتيش الجسدي للنساء العراقيات، كل ذلك أغضب العراقيين وأثار النقاش بأن قوات الغزو تنتهك عن قصد الأعراف الثقافية والاجتماعية لإذلال العراقيين."⁵⁰

بناءً على هذا التوجه، أشارت مونتغمري مكفيت إلى أن المعرفة الثقافية والحرب مرتبطتان ارتباطاً وثيقاً لا ينفصم، فالمعرفة الثقافية تعتبر وسيلة لتحسين وتطوير البراعة العسكرية. وأكد الجنرال الأمريكي روبرت سكيلز أنه يجب على العسكرية الأمريكية أن تطوّر قدرة استثنائية على فهم الناس وثقافتهم ودوافعهم، وتناول الوعي الثقافي كضرورة ملحة من ضرورات النجاح في العمليات العسكرية، إذ قال إنه "على القادة العسكريين أن يمتلكوا القدرة على الفعل وحيدتين في ظروف من الشك واللايقين والغموض... وعليهم أن يمتلكوا وعياً ثقافياً كافياً بمسرح العمليات، حيث المواقف المتناقضة والغامضة هي المعيار لهذا المسرح."⁵¹ والوعي الثقافي وفقاً لأحد الضباط الأمريكيين، يمكن له أن يقلل من ضباب الحرب والاحتكاك في ساحة المعركة، بمعنى نزع السحر عن الحرب. وفي تشرين الأول من العام 2003، ناقش عضو الكونغرس الأمريكي إبيكي سكيلتون في رسالة لوزير "الدفاع" الأمريكي دونالد رامسفيلد بأن على صناع السياسات أن يفهموا بشكل أفضل الثقافة العراقية، إذ إن هذا الفهم سيساعد على تفادي الكثير من المشاكل التي واجهت القوات الأمريكية آنذاك. وفي ورقة للسياسات الأمريكية قُدمت للإدارة الأمريكية عام 2005، أشارت إلى اعتبار المهارات

اللغوية والخبرات الإقليمية مهمة بقدر أهمية أنظمة الأسلحة.⁵² والسؤال ما معنى هذا التأكيد على الوعي الثقافي، وكيف له أن يلعب الأدوار سابقة الذكر؟

أشار محللون عسكريون إلى أن فهم المشهد العراقي ثقافياً، بما يتضمّنه من انتماءات قبلية وإثنية، يعد تأسيساً لأيّ نجاح عسكري مستقبلي. فدون هذا الفهم، ستجري العمليات العسكرية في العماء، وبذلك تبلورت الحاجة إلى التبصر الضروري في الثقافة لممارسة التأثير على السكان الذين يستمدّ منهم المتمردون دعمهم. وبكلمات الجنرال ديفيد بترابوس ومونتغمري مكفيت، إذا ما كان السكان المحليون يشكّلون مركز الثقل لعمليات مكافحة التمرد، فإن هذا الشكل من المعرفة السوسيو-ثقافية تعتبر مكوناً حاسماً لتحقيق النجاح العسكري. وبشكل عام، كان هنالك ميل نحو فكرة أن الثقافة وأشكال أخرى من المعرفة ذات أهمية عالية في هذا النوع من النزاعات، كما أصبحت الثقافة مكوناً أساسياً من مكونات التخطيط العسكري، إذ إن مفهوم الثقافة تمّ إعادة تشكيله ليلائم العمليات العسكرية، وأصبحت فيه الثقافة والوعي بها أداة من صندوق الأدوات العسكرية، ومهارة كما مهارات إطلاق النار وقيادة الطائرات. ويقول أحد الباحثين في هذا السياق بأنه "كلما تعلّمنا أكثر عن أعدائنا، سنشكّل صورة أفضل لدوافعهم ونظامهم القيمي وردودهم على الأحداث. وهذا سيمكّننا بشكل أفضل من جمع وتفسير المعلومات الاستخباراتية الثقافية التي تعتبر شريان الحياة لمكافحة التمرد."⁵³ كما أن مكفيت قالت في إحدى المؤتمرات التي تبحث العلاقة بين الأمن القومي الأمريكي والمعرفة الثقافية للخصم، بأنه كلما كان الخصم أكثر لا تقليدية وبعيداً عن المعايير الثقافية الغربية (كما هو الحال في العراق)، كلما زادت الحاجة لفهم المجتمع وديناميكيات الثقافة فيه.

هذا الفهم الجديد صُمّم لا لتمييز بين العدو والصديق فقط، بل ليعمل على تشكيل نوع من الهندسة الاجتماعية كقدرة أدائية يتم من خلالها فهم المجتمع العراقي لتغيير مواقفه،

وتشكيل التحالفات والتلاعب فيها، وتحويل الأعداء إلى أصدقاء وخلق صانعين للقرار السياسي واستدامتهم، إلى جانب تطبيق أنظمة سياسية جديدة للحكم. وبذلك أصبح فهم ثقافة العدو روح مكافحة التمرد في العراق. ولعل المثال الأبرز على هذا التحول في الفهم هو صدور كُتَيْب عقيدة مكافحة التمرد في العام 2006، والذي قام بإعلان الانتقال من العمليات العسكرية الخشنة، إلى العمليات العسكرية ذات التطبيق المعرفي الأكثر ذكاءً، إذ أدمج الكُتَيْب المعرفة الثقافية والاجتماعية المحلية في تصميمه، داعياً إلى التحول من استخدام الأسلحة الذكية إلى بناء الجنود الأذكياء. كما وأشار الكُتَيْب لمكافحة التمرد بأنها حرب الدراسات العليا، وحسب ما جاء فيه أن "التحليل الشامل للتمرد يفحص التفاعلات بين الأفراد والمجموعات والمعتقدات داخل السياق التاريخي والثقافي للبيئة العملية. وأحد أهم المنتجات لهذا التحليل هو فهم كيف يفكر الناس، هذه المعرفة تسمح بتحليل استشرافي وتنبؤي لأفعال العدو، كما أنها تساهم في القدرة على تطوير العمليات المدنية-العسكرية المشتركة... المعرفة الثقافية هي أمر أساسي لخوض مكافحة التمرد. فالأفكار الأمريكية حول ما هو "طبيعي" و"عقلاني" ليست كونية، على العكس من ذلك، أعضاء المجتمعات الأخرى عادة ما يمتلكون أفكاراً ومفاهيم مختلفة حول ما هو عقلاني".⁵⁴

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى التحوّلات التي طرأت على تناول مفهوم الثقافة العراقية من قبل القوات الأمريكية. فالمواد الأولى حول الثقافة في العراق التي أنتجت قبل الشروع في استراتيجية مكافحة التمرد، اعتمدت على مقارنة دراسات الشخصية الوطنية. هذا الفهم للثقافة، صوّر طريقة واحدة لأن تكون عراقياً وعربياً ومسلماً، إذ تمّ التعامل مع هذه المفاهيم كما لو كانت مفاهيم سرمدية، وليست نتاجاً للتاريخ أو القوى السياسية، ما جعل العراقيين كتلة واحدة صمّاء على اختلاف خلفياتهم التعليمية وأماكن سكنهم وأجيالهم المختلفة ولغاتهم وأديانهم ومستويات دخلهم الاقتصادي ورغم تمزقهم الطائفي والاختلافات الإثنية بينهم. وعلى هذا الأساس، ادّعى إطار الشخصية الوطنية بأن سلوك

العراقيين سيتطابق والخصائص المتأصلة للجماعة الوطنية كما عرّفها تلك المقاربة.

وفي أوائل العام 2004، ذكرت وسائل إعلام أمريكية بأن الجنود ومشاة البحرية الأمريكية المتمركزين في العراق تلقوا تدريبات حول الحساسية الثقافية تجاه العراقيين، والتي تضمّنت إحاطات حول المعتقدات الدينية، ولغة الجسد، والأدوار الجندرية، والبنى السوسيو-سياسية. هذا التوسُّل بالثقافة والدين لتفسير ردود الفعل العراقية وجعلها قابلة للتوقُّع، يظهر كما لو أنه يعبر عن منطق الاستشراق الكلاسيكي، فمقاربة التدريب الثقافي تقوم بتكسير موضوع معروف كالثقافة والسلوك العربيين إلى قطع جاهزة للهمضم وسهلة للتذكُّر. تنطوي هذه العملية على إعادة صياغة النظام السوسيو-ثقافي وتذريه إلى قواعد للسلوك العسكري العملياتي. من هنا يمكن فهم إصدار البطاقات الثقافية الذكية والتي أتت بحجم المحفظة للجنود الأمريكيين في العراق، والتي احتوت على عناوين "لا تفعل ذلك أو افعل ذلك"، بناء على حقائق أساسية حول المجتمع والدين والتاريخ والجغرافيا للعراق.

وفي العام 2005، قام سلاح المشاة البحرية الأمريكية بإنشاء مركز التعلُّم المتقدِّم للثقافة العملية، كما أن قيادة الجيش الأمريكي للتدريب والعقيدة العسكرية أنشأت المركز الثقافي في العام 2006، وضمَّ كلا المركزين لتقديم تدريب لغوي وثقافي للضباط، واعتبرت هذه المراكز أيضاً مسؤولة عن تقديم منتجات ثقافية للاستخدام التكتيكي كملخصات إقليمية وكُتبيبات وبطاقات ثقافية ذكية، كما وتلعب دوراً في جمع وتحليل وتصنيف المعلومات السوسيو-ثقافية تمهيداً لاستخدامها في العمليات.

ومع صدور وتطوُّر الدليل الميداني لعقيدة مكافحة التمرد العام 2006، وظهر برنامج التضاريس البشرية الذي استدخل العلوم الاجتماعية في دراسة المجتمع العراقي، حدثت نقلة في النظرة إلى الثقافة، من اعتبارها أمراً جامداً وساكناً يعرف الجميع من خلاله، إلى النظر إليها باعتبارها أمراً طبيعياً تؤثر وتتأثر بمحيطها والفاعلين المختلفين. وقيل إنه

لمواجهة عدو يوصف بأنه شديد الصلة بالتاريخ والجيولوجيا، على القوات المسلحة الأمريكية أن تتبنى وجهة نظر الإثنوغرافي حول العراق. وبذلك تحوّلت التضاريس البشرية إلى مفهوم مركزي يقوم بتشكيل المقاربة العسكرية للثقافة، على اعتبار أن التخطيط والعمليات العسكرية الأمريكية مرتبطة بشكل وثيق بالطوبوغرافيا. من هنا تبلور مصطلح الثقافة عسكرياً في كتيّب مكافحة التمرد، باعتباره "شبكة من المعاني المشتركة بين أفراد المجتمع، ونظماً للمعتقدات المشتركة والقيم والعادات والسلوكيات والطقوس واللغة لمواكبة العالم المحيط فيهم. في الختام، يجدر الإشارة إلى أنه بعد نشر كتيّب مكافحة التمرد، روج الجيش الأمريكي بأن الخطة الذكية الجديدة، والتي قيد التطبيق، على أنها منقذة الحرب الأمريكية الخاسرة في العراق."⁵⁵

5. "لورانس العرب" في الحرب الأمريكية على العراق: جذور الباحث المقاتل

كما هو حال الغرب عموماً وحاجته الدائمة للبحث عن الأصول لحاضره ومستقبله في الماضي، وجدت الولايات المتحدة الأمريكية في "لورانس العرب" نموذجاً يحتذى به في الحرب على العراق. فمع تولي ديفيد بترايوس قيادة القوات الأمريكية في العراق، أصدر أمراً لضباطه بقراءة كُتَيْب لورانس، **البنود السبعة وعشرون**، وهو دليل خطّه لورانس قام فيه بتدوين رؤاه ونقل تجربته للضباط البريطانيين حول التعامل مع العرب، باعتباره دليلاً مهماً لكسب عقول وأفئدة الشعب العراقي. وفي مقال له صدر العام 2006، اعتبر بترايوس أن توجيهات لورانس تعتبر ذات صلة بشكل كبير بحروب القرن الحادي والعشرين، وخصوصاً الحرب الأمريكية على العراق، كما كانت أيام لورانس في الحرب العالمية الأولى، وخصوصاً مقولته التي تنطبق تماماً على الحرب الأمريكية على العراق، والتي يقول فيها لورانس "لا تجرّب أن تفعل كل شيء بيدك، فمن الأفضل أن يفعلها العرب بشكل مقبول بدلاً من عمالك ذات الفعل بشكل مثالي. هذه حربهم، وأنت هنا لتساعدهم لا لتفوز بالحرب نيابة عنهم".⁵⁶

ولم يخل الأمر من إشارة عسكريين ومدنيين آخرين للورانس كنموذج يُحتذى به في الحرب على العراق. فاعتبر كُتَيْب مكافحة التمرد الصادر في العام 2006، لورانس وتجربته في "الثورة العربية الكبرى" نموذجاً يحتذى به في الحرب الأمريكية على العراق.⁵⁷ وهو ما أكد عليه ضابط في القوات العسكرية الأمريكية بقوله إن "كتاب أعمدة الحكمة السبعة للورانس يوضح الخفايا حول تعامله مع العرب وقبولهم به، ويقدم دروساً يجب علينا الإصغاء إليها في الحرب الأمريكية على العراق".⁵⁸ وأضاءت مونتغمري مكفيت الضوء على دور لورانس لاستشراف ما هو مطلوب من العسكرية الأمريكية في العراق، أي ما قام به من تنقيب في ثقافة الخصم خلال الثورة العربية الكبرى على الإمبراطورية العثمانية، وانغماسه في الثقافة المحلية، مستعينة بما أورده

من توجيهات بهذا الصدد، حيث إن "الجغرافيا، البنية القبلية، الدين، العادات الاجتماعية، اللغة، أذواق الطعام، المعايير كانت كلها في متناول يدي. فالعدو عرفته عن قرب كما لو كان نفسي."⁵⁹ لتلخص إلى نتيجة مفادها، أنه "منذ ذلك الوقت حفظ عدد لا نهائي من الجنود عن ظهر قلب القول المأثور لصن تزو: إذا ما عرفت العدو وعرفت نفسك، لا حاجة للخوف من نتائج مئة معركة."⁶⁰

وكما ذكر أعلاه، دعا الجنرال روبرت سكيلز إلى أن هناك حاجة إلى صناعة جنود أفضل وبشر أكثر فاعلية في الحرب على العراق، وأعطى سكيلز لورانس العرب في هذه الدعوة مقام النموذج الذي يجب الاحتذاء به. إذ قال: "أسس الجيش البريطاني عادة نقل ضباط لامعين إلى أنحاء المعمورة لكي يتعمّدوا في ثقافات الإمبراطورية البريطانية، ولكي يؤسسوا أواصر حميمية مع الملوك من مصر إلى مالايا. أسماء لامعة مثل تشارلز جوردن (المعروف بجوردون الصيني، جوردن باشا، وجوردون الخرطوم)، وThomas Lorrance (لورانس العرب)، تشهد بحكمة مثل هذه العادة... وفي قلب منهج الحروب المستقبلية المتمحورة حول "الثقافة" سيكون هناك كوارث من المستطلعين على درجة جيدة من التعليم، وولع باللغات، وارتياح للأماكن الغريبة والبعيدة. هؤلاء الجنود يجب أن يعطوا الوقت لينغمسوا في ثقافة واحدة... يجب عليهم أن يذهبوا إلى الدراسات العليا وينضموا إلى تخصصات ضرورية لفهم السلوك الإنساني والثقافة الأنثروبولوجية."⁶¹

ولكن الكاتب أندرسون سكوت يتساءل عن صياغة لورانس لدوره هذا، أي بكلمات أخرى، كيف استطاع عالم آثار من جامعة أكسفورد لا يمتلك يوماً واحداً من أيّ تدريب عسكري أن يصبح قائداً ميدانياً لجيش أجنبي ثوري، وسيد الاستراتيجية الذي تنبأ بالعديد من الأحداث القادمة في زمانه؟ يرجع ذلك بحسب الكاتب إلى السنوات التي قضاها لورانس بالانغماس في المجتمعات الشرقية والثقافة العربية، والذي من خلال هذا الانغماس قد أظهر تقديراً عميقاً للعلاقات العشائرية والقبائلية، إلى جانب اهتمامه

الأكاديمي بالحرب في العصور الوسطى التي رآها في جوانب عديدة شبيهة بالحرب العربية في بدايات القرن العشرين، حيث تشابهت في كيفية تجنيد القوة العسكرية وبنية القادة التنظيمية. فشبهه دور الأمراء الأوروبيين بدور شيوخ العشائر والقبائل العرب.

بدأ لورانس اهتمامه بمعرفة التلاقيح الشرقي-الغربي من خلال دراسة العمارة والأركيولوجيا للحصون الصليبية في الشرق الأوسط، محاولاً الإجابة عن سؤالين، هل تعلم الصليبيون من أعدائهم المسلمين خلال غزوهم الأرض المقدسة أم هل نسخ المسلمون معرفتهم من الصليبيين؟ من هذا التساؤل خرج لورانس بأطروحته الجامعية في أكسفورد والتي جاءت تحت عنوان "تأثير الحروب الصليبية على العمارة العسكرية الأوروبية." لاحقاً، وخلال رحلة استكشافية للآثار في المنطقة العربية، أبدى لورانس افتتانه وتقديره لكيفية عمل ما سماه بالثقافة الشرقية في حينه، من خلال التعرف على عادات وتقاليد العديد من العمال العرب الذين كانوا تحت إمرته.

ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى، انضم لورانس إلى وحدة الاستخبارات العسكرية البريطانية المتموضعة في القاهرة، بعدما كان يشغل موقعاً مهنيًا في قسم الجغرافيا في مكتب الحرب في لندن. في منصبه الأول عمل لورانس على تقرير استخباراتي عن طوبوغرافية سورية وثقافتها والتقسيمات الإثنية التي أرسنها الإمبراطورية العثمانية. وخلص فيه إلى أنه نظراً للمساحة الشاسعة التي تمثلها الإمبراطورية العثمانية، فإن الحرب التقليدية ضدها غير مجدية. وبدلاً من ذلك، على البريطانيين أن يسعوا إلى استراتيجية غير معتادة، مثل استغلال فرصة الصدع الداخلي في مجتمع العدو، وإقامة تحالفات مع مكوناته من الساخطين على الحكم العثماني.

من هنا، تزايد اهتمام لورانس بالجزيرة العربية باعتبارها حقلاً محتملاً لحرب غير تقليدية والتي في حال لو اندلعت ستهزم العثمانيين من خلالها. وبناءً عليه، شرع بدراسة شخصيات

أبناء الشريف حسين باحثاً عن قائد محتمل للثورة العربية ضدَّ العثمانيين، مستفيداً من خبرته في سورية عندما قام بدراسة بنية العشائر والقبائل، والقواعد المعقدة التي تحكم تفاعلهم. وقد وصف هذه الخبرة بقوله "قبل سنوات الحرب لطالما تجولت ذهاباً وإياباً في الشرق، تعلمت خلالها أخلاق وعادات الفلاحين ورجال العشائر ومواطني سوريا وبلاد ما بين النهرين. اختلاطي هذا، جعلني قادراً على فهم ما تفكر به الأغلبية والتفكير مثلهم." ووفقاً لأحد الكتّاب، على الرغم من كون لورانس أنثروبولوجياً مبتدئاً، وعسكرياً لا خبرة عسكرية لديه، إلا أنه قام بتدوين طوبوغرافيا الحجاز البشرية والجغرافية من خلال أعين العسكري، خرج من خلالها بنتيجة أن "مجالهم الحقيقي هو حروب الغوار... روح المبادرة لديهم والمعرفة الكبيرة بالبلد وقدرتهم على التحرك السريع تجعلهم قوة هائلة."⁶²

وفي معرض تأريخه الدور البريطاني في "الثورة العربية"، أشار لورانس إلى كونها حرباً عربية، تمَّ شئها وقيادتها من قبل العرب ومن أجل أهداف عربية. وأشار إلى أنه كان غريباً في بدايتها، وغير قادر على التفكير بأفكار العرب أو الاشتراك بمعتقداتهم، ولكن في الوقت نفسه كان مدفوعاً بحسّ الواجب لقيادتهم قدماً نحو الأمام، نحو تحقيق غاياتهم في الاستقلال. دفعه هذا الحسُّ "في هذه السنوات للعيش بلباس العرب وتقليد أساسهم العقلي، جعلني انسحب من ذاتي الإنجليزية والنظر إلى الغرب بأعين جديدة... هذه النظرة نابعة من تعلق وعاطفة تجاههم، ومن الإيمان بقدرة الشخص على النظر من خلال الحجاب الذي يفصل الثقافتين والبيئتين عن بعضهما بعضاً." وأضاف، "ما زال السؤال عن أصل هؤلاء الناس [العرب] سؤالاً أكاديمياً، ولكن لفهم ثورتهم واختلافاتهم الاجتماعية والسياسية المهمة، يجب أن يتمَّ ذلك من خلال فهم جغرافيتهم، فهذا التنوع الفيزيائي قام بقبولبة التاريخ الاجتماعي الخاص بهم."⁶³

لعبت شخصية لورانس ومهمته في بلاد العرب دوراً في بلورة أرضية لنموذج يُحتذى به في مكافحة التمرد المتمركزة حول السكان، فإذا ما كانت الأخيرة قائمة على قدرة

المقاتل والعسكري على الانغماس في مجتمع الخصم بحسب أحد الباحثين، فإن دور لورانس يجعله مؤهلاً للقيام بدور النموذج في الحرب الأمريكية على العراق. فقد كان لورانس وفقاً لأندرسون "التجسيد الحضاري للإمبراطورية البريطانية والعبء الذي حمّله لنفسها إما بالتجارة أو الإنجيل أو البندقية، أو للدقة بمزيج من الثلاثة".⁶⁴ وقبل الشروع في تناول نظام التضاريس البشرية بما هو مشروع لإدماج العلوم الاجتماعية وممارستها في مسرح العمليات العسكري، بهدف الانغماس في المجتمع لدرسه بغرض الهيمنة عليه، والدرس هنا يأتي بمعنى مزدوج بحسب ما أفاد خالد عودة الله، أي البحث من جهة، والدوس من جهة أخرى، من الضروري التعرّيج على نشأة العلوم الاجتماعية السياسية وعسكرتها لاحقاً ضمن منطلق الاستخدام المزدوج لها. فالحقل المعرفي وفقاً لمونتغمري مكفيت، والذي اخترع لمساندة جهود الحرب في منطقة قبائلية وعشائرية كما هو حال العراق، هو حقل الأنثروبولوجيا.⁶⁵

6. العلوم الاجتماعية: من النشأة السياسية والاستعمارية إلى الاستخدام المزدوج

يقول ديفيد برايس في معرض تقديمه لكتابه الاستخبارات الأنثروبولوجية، بأن العلم الخالي من السياسة أو المحاييد سياسياً لا وجود له، وأن الادعاء بعكس ذلك لن يوصلنا إلى أيِّ مكان.⁶⁶ وانطلاقاً من هذا الموقف المعرفي الأصيل، يمكن فهم قراءة سانتياغو جوميز لدور المعرفة في مشروع الحداثة، وذلك في إجابته على سؤال ما معنى مشروع الحداثة، فكان قوله بأنه "بشكل عام وأساسي، إخضاع العالم لسيطرة الإنسان المطلقة تحت إرشاد وتوجيه من المعرفة العلمية."⁶⁷ ففي البداية، ارتبطت العلوم الاجتماعية بتاريخ بنية العالم الحديث منذ القرن السادس عشر، حيث أنها اعتبرت جزءاً لا يتجزأ منه، نظراً لدورها في إنتاج معرفة منهجية علمانية يمكن فحصها إمبريقياً، وأنها تأتي على النقيض من المعرفة القائمة على التخمين والتكهنات.⁶⁸ ولذلك تمَّ تعريفها في القرن التاسع عشر على أنها "الدراسة الإمبريقية للعالم الاجتماعي لغرض فهم التغيير الطبيعي والتأثير فيه لصالح سياسات الدولة-الأمة."⁶⁹

من هنا، كان اقتران العلوم الاجتماعية بنشوء الدولة-الأمة اقتراحاً محورياً وعضوياً، فحاجة الدولة لمعرفة دقيقة لتبني قراراتها عليها، أدَّى لظهور تصنيفات جديدة في المعرفة، منها العلوم الاجتماعية. وفي الوقت نفسه، لا يمكن إغفال كون عملية مأسسة العلوم الاجتماعية تزامنت مع الحركة الاستعمارية لأوروبا والتي سيطرت على بقية العالم. فمثلاً، كان من نتيجة التغيير الذي أحدثته الثورة الفرنسية وما واكبها من تطبيع لعملية التغيير، أن ظهرت العلوم الاجتماعية كضرورة لتفسير رؤية الناس للعالم وتفسيرهم له. من هنا كان دور العلوم الاجتماعية في تطبيع التغيير، أي أن التغيير قد أضحى أمراً طبيعياً، لما سُمِّي بالأمم المتحضرة، إلى جانب دورها في "جلب باقي الأمم لركب الحضارة، فدراسة الشعوب البدائية أصبح مجال الأنثروبولوجيا، ودراسة الشعوب المتحجرة كالصين والهند

والعالم العربي أصبحت مجال الاستشراق. في كل حقل للدراسة الأكاديمية أُكِّدَت على عناصر الثبات، لكنها أيضاً تَمَّت مواكبتها بالهندسة الاجتماعية.

ويتناول سانتياغو جوميز الموضوع بتفصيل أكثر، إذ إنه يشير إلى أن هنالك ظاهرتين غريبتين وطيبتا الارتباط، وهما تشكيل الدولة-الأمة وتدعيم الاستعمار. وتلعب المعرفة العلمية في هذا السياق دوراً في تدعيم هاتين الظاهرتين. فالعلوم الاجتماعية قامت بدور أساسي في التنظيم والسيطرة على الحياة الإنسانية، وولادتها لم تكن "ظاهرة مضافة لهيكل التنظيم السياسي المعروف بالدولة-الأمة، بل كانت جزءاً تأسيسياً لهذا الإطار والهيكل". ويضيف جوميز بأنه من أجل أن تحكم الدولة-الأمة العالم الاجتماعي، كان عليها أن تخلق منصّة لمعاينته علمياً. وهنا كان دور العلوم الاجتماعية، فمن دونها لم يكن بإمكان الدولة الحديثة أن تمارس السيطرة على حياة الناس، وتعرّف الأهداف الجمعية طويلة وقصيرة المدى، أو أن تبني لمواطنيها الهوية الثقافية، إذ قامت بشرعنة سياسات الدولة التنظيمية وضبط الحياة البشرية وتكييفها لهيكل الدولة.⁷⁰

ولعل أبرز من تناول دور الدولة الحديثة في السيطرة على الفضاء الاجتماعي من خلال العلم، ما قدّمه جيمس سكوت في مؤلّفه **أن ترى كأنك دولة**. يناقش سكوت مشكلة مقروئية المجتمع بالنسبة للدولة، تلك المقروئية التي أصبحت مشكلة أساسية في صنعة الدولة وفن الحكم في الحداثة، فلتنظيم السكان من أجل تطبيق وظائف الدولة في جبي الضرائب والتجنيد ومنع الثورة، كان لا بدّ من تحقيق مقروئية المجتمع أولاً لتزويد الدولة بالقدرة على القيام بهندسة اجتماعية على نطاق واسع.

في هذا الإطار، يقدّم سكوت مقاربة هندسة الغابة علمياً من خلال علمي الغابات والهندسة، تحولت خلالها الغابات "من موطن ومسكن طبيعي ونظام بيئي معقّد، إلى اعتبارها مصدراً اقتصادياً يجب أن تتم إدارتها بشكل أكثر كفاءة وعلى نحو مربح أكثر."

هذا التلاعب بالغابات والذي جعلها مقروءة علمياً، حوّلها إلى حقل للتجارب، إذ إن الغابات القديمة والمعقدة تحولت إلى غابات أصبحت فيها المتغيرات ثابتة وواضحة. فكل شيء بدا غير متعلّق بالإنتاج الكفاء للغابة باعتبارها سلعة تمّ تجاهلها. ويقول سكوت إن ذلك ما حدث للمجتمع تحت سطوة الدولة أيضاً، فشبكة السلطة الإدارية وتقنياتها في التعامل مع السكان علمياً، والمدعومة بقوة الدولة النابعة من السجّلات والمحاكم والإكراه، حوّلت الواقع والحقائق (Transformed) التي افترضت أنها ترصدها. ليخلص سكوت في نهاية المطاف إلى أن عمل الدولة في التبسيط والاختزال، كما هو حال كل أعمال التبسيط، يعدّ عملاً جامداً مقارنة بالظواهر الاجتماعية التي يفترض العمل على تصويرها.⁷¹ من هنا يمكن قراءة دور نظريات العلوم الاجتماعية الملازم للهندسة الاجتماعية التي تقودها الدولة، حيث يقول وائل حلاق: "توفّر نظريات العلوم الاجتماعية والاقتصاد والاجتماع وعلم النفس للحكومة نوعاً من الآلية الفكرية على هيئة إجراءات تهدف إلى جعل العالم قابلاً للتفكير فيه، وترويض واقعه العنيد عن طريق إخضاعه لتحليلات الفكر المنضبطة."⁷²

ويأخذ محمود ممداني الأطروحة هذه إلى مدى أوسع، إذ يقول إنه بينما كانت السردية التقليدية لنشأة الدولة الحديثة مرتبطة باتفاقية ويستفاليا لعام 1648، إلا أنه يدّعي بأن اللحظة المؤسّسة للدولة الحديثة كانت في العام 1492، التي شهدت فيها ولادة الدولة- الأمة في أيبيريا نتيجة سببين اثنين: الأول، التطهير العرقي الذي مارسه الملكية القشتالية بغرض إنشاء وطن قومي متجانس للمسيحيين الإسبان من خلال إخراج وتحويل الغرباء الذين كانوا بينهم من يهود ومسلمين. والثاني، هو إنشاء المستعمرات في الأمريكيتين من قبل الملكية القشتالية ذاتها التي قادت التطهير العرقي. في هذه السردية، فإن "الاستعمار الحديث لم يكن فعل بدأ فيه الدول في القرن الثامن عشر، بل إن الاستعمار الحديث والدولة الحديثة ولدا معاً مع خلق الدولة- الأمة."⁷³

ولكن ما يهمنا في هذا السياق أكثر، هو الوجه الاستعماري للعلوم الاجتماعية، فإذا ما أقررنا أن الحداثة هي مشروع ظهر في القرن السادس عشر لحكم العالم الاجتماعي، فإن "المعرفة/ السلطة فيها راسية في كولونيالية مزدوجة: الأولى، موجّهة للداخل من قبل الدولة-الأمّة في أوروبا وأمريكا من أجل إنشاء هويات متجانسة بواسطة سياسات الإخضاع. والثانية، موجّهة للخارج من قبل قوى الهيمنة في العالم الكولونيالي الحداثي. من هنا، فإن العلوم الاجتماعية قد تطورت في فضاء من السلطة الكولونيالية الحديثة، وما ارتبط بها من المعرفة الأيديولوجية التي ولّدتها منذ البداية.⁷⁴ من هذا الباب، فإن العلوم الاجتماعية لم تنتج قطيعة مع الأيديولوجيا، فالمخيلة الاستعمارية تغلغت في كامل النظام المفاهيمي للعلوم الاجتماعية منذ نشوئها، إذ ظهرت المفاهيم الثنائية في العلوم الاجتماعية كالبربرية والحضارة، التقليد والحداثة، جماعة ومجتمع، علم وخرافة، طفولة ونضج، التضامن العضوي والتضامن الآلي، الفقر والتنمية، إلى آخره.

من وجهة النظر هذه، يخرج جوميز بنتيجة أن الحداثة مولّدة للغيرية، فإذا ما قامت الدولة-الأمّة بإنشاء ذوات منسّقة، فإنها تقوم في الوقت ذاته باختراع الآخر بما ينطوي عليه هذا الاختراع من آليات السلطة/المعرفة التي تتخلل هذه التمثيلات والثنائيات التي تمّ تشييدها. من هنا، "تحوّلت وظيفة العلوم الاجتماعية بنويًا كهيكل أيديولوجي أقرّ استثناء واستبعاد أو تأديب أولئك الذين لا يطابقون الذاتية التي حاولت الدولة تطبيقها. وخارجياً، شرعنة العلوم الاجتماعية التقسيمات الهيكلية المتصورة بين الأمم. من هنا فإن إنتاج الغيرية من الداخل والغيرية الخارجية هي أجزاء من نفس بناء السلطة، فكولونيالية السلطة وكولونيالية المعرفة تمتلكان ذات مصفوفة الجينات." إذن، فالحداثة باعتبارها مشروعاً للسيطرة العقلانية على الحياة البشرية من الدولة، ترتبط عضويًا فيها مأسسة العلوم الاجتماعية والتوسع الاستعماري الأوروبي، فجميع هذه الممارسات على اتصال ببعضها البعض بنويًا.⁷⁵

ولذلك، يمكن النظر إلى أن فلسفة العلوم الاجتماعية منذ البداية استعمارية بامتياز، فهي نشأت في زمان ومكان محددين، أي أوروبا في الفترة الحديثة المبكرة التي حدثت فيها الثورة الإبتيمية بالتزامن مع الممارسات السياسية التي ارتبطت بعالم الحداثة، أي نشوء الدولة-الأمة والحركة الاستعمارية. فالعلوم الاجتماعية جزء لا يتجزأ من الحداثة الغربية، إذ حكمتها منذ تأسيسها عقلانية تناسب الهيمنة الأوروبية في المستعمرات، والتي حاولت فرضة رؤية "الحقيقة الكونية الواحدة." فالبحوث التي أجريت على المجتمعات الأخرى قامت على مناهج بحث غربية، كان فيها انتقاء مواضيع البحث والنتائج التي تخلص إليها موجهة أيديولوجيا بهدف السيطرة، وبذلك تحوّلت العلوم الاجتماعية إلى أداة قمع في يد النظام الاستعماري.⁷⁶

فمثلاً، في التوسع الاستعماري الاستيطاني في الولايات المتحدة الأمريكية، تبلورت ممارسات فكرية وعملية للحصول على استخبارات ثقافية حول الشعوب الأصلانية، وكان أحد أبرز الشخصوخ في هذا المجال جون باول الذي كان قبل كل شيء جامعاً لعادات السكان الأصليين ولغاتهم. فقد عُيّن رئيساً لمكتب الإثنولوجيا الأمريكية الذي قام بمهنة دراسة السكان الأصليين معرفياً. من هنا، تبلور دور حقل الأنثروبولوجيا داخل الولايات المتحدة بارتباطه بمكتب "شؤون الهنود الحمر"، وما واكب هذا الحقل المعرفي من تحول أهداف الاستعمار الاستيطاني من الاستيعاب إلى إنهاء وجودهم كشعوب أصلانية بفرض أنماط من الإدارة الغربية لإبادة اساليبهم في الإدارة. فقد كان ملقى على عاتق الأنثروبولوجيين تسهيل منطوق الإبادة للاستعمار الاستيطاني، الذي حوّل سياسات الاستيعاب إلى سياسات إبادة من خلال خطاب اتّحدت فيه الثقافة بالبيولوجيا. ولذلك فالتاريخ المبكر للدراسات الإثنوغرافية حول السكان الأصليين لا يمكن فصله عن التاريخ المشين للاستعمار والإبادة الفيزيائية والثقافية.

وفي الإمبراطورية البريطانية، كانت الأنثروبولوجيا التطورية في القرن التاسع عشر كممارسة

استعمارية، إذ كان الموضوع الأساسي لهذا الحقل المعرفي هو التشابه بين "المتوحشين المعاصرين" والإنسانية البدائية، حيث أصبحت الثقافات المحلية التي تخضع لحكم الإمبراطورية البريطانية هي موضع الدراسة الأنثروبولوجية. وينطبق ذلك على الأنثروبولوجيا الاجتماعية، حيث نشأت كإثنوغرافيا للإدارة الاستعمارية للإمبراطورية البريطانية، واهتمت بفهم وجهة نظر السكان الأصليين وصلّتهم بالحياة وكيف يرون عالمهم، ما ساعد إداريي المستعمرات على إحكام قبضتهم على السكان المستعمرين. فقد لعبت المعرفة الأنثروبولوجية دوراً في تجاوز الصراع الاستعماري وتفادي ثورات السكان المحليين. من هنا كانت العلوم الاجتماعية بشكل عام والأنثروبولوجيا بشكل خاص، حقولاً معرفية خادمة للاستعمار (Handmaiden of Colonialism).⁷⁷

لاحقاً، اعتمد تطوّر العلوم الاجتماعية في الولايات المتحدة الأمريكية بشكل أساسي على علاقة حميمة بينها وبين تشكيل دورها كإمبراطورية صاعدة. فلم يقتصر الأمر على عدّ الجهات الرسمية وغير الرسمية الأمريكية للعلوم الاجتماعية باعتبارها أمراً أساسياً في قدرتها على إدارة الإمبراطورية، بل ساهمت في إعادة تنظيمها وتشكيلها أيضاً. ففي الحرب العالمية الأولى، تمّ تأسيس علاقة جديدة بين الأنثروبولوجيا الأمريكية ووكالات الاستخبارات والعسكرية الأمريكية، فقد أظهرت الحرب أنه بإمكان الأنثروبولوجيين ان يكونوا أصولاً (Assets) مهمة في جهود الحرب، حيث يتمّ توظيف معرفتهم بالمناطق التي أصبحت جبهات قتال ذات أهمية استراتيجية عالية. فبعض الأنثروبولوجيين قاموا بالعمل على تأليف بروباغاندا لتحديد الأعداء، وآخرون ساهموا بمعرفتهم الجغرافية في كتابة تقارير استخباراتية أو لعبوا دور الجواسيس.

وفي فترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، اعتبرت الولايات المتحدة الأمريكية التدخّل في عملية إنتاج المعرفة مساندة لسعيها في توسعة ودعم جهود الإمبراطورية، حيث سعت لتحصيل المعرفة حول الظروف الاجتماعية والأنماط الثقافية والذوات الإنسانية

الواقعة ضمن دائرة التأثير والهيمنة للإمبراطورية الأمريكية الصاعدة، وهي معرفة تجعل تلك المناطق مقروءة وقابلة للإدارة والسيطرة والهندسة الاجتماعية. ولعل أبرز سمات هذه الفترة، تأسيس مجلس البحوث الاجتماعية في العام 1923 بدعم حكومي وغير حكومي أمريكي، وكانت المهمات الواقعة على عاتقه نقاش المسؤوليات التي تقع على الولايات المتحدة الأمريكية والمتعلقة بالعالم. فالمعرفة حول الشعوب الأخرى في كل العالم يجب أن تكون بمثابة عمل استخباراتي، ولكن أشار المجلس إلى العجز في تلبية هذه المعرفة، إذ افتقرت الولايات المتحدة الأمريكية آنذاك إلى الخبرات الضرورية لجمع هذه المعرفة، ما أثار تخوفات المجلس من تعرّض الأمن القومي الأمريكي للخطر نتيجة ذلك.

ولحل هذه المشكلة، أصدر المجلس في العام 1943 وثيقة عنوانها "مناطق العالم والعلوم الاجتماعية"، أتت لحل كارثة ضعف العمل الاستخباراتي حول المناطق ذات الأهمية الجيوسياسية للولايات المتحدة الأمريكية، وجاء فيها "هنالك حاجة ملحة لعلماء العلوم الاجتماعية الذين يعرفون مناطق مختلفة حول العالم... ما يستدعي دعم البحوث التي تفتقدها الولايات المتحدة الأمريكية حول المعرفة المنطقية... فحاجتنا لمعرفة شاملة حول مناطق أخرى من العالم لن تنتهي بإقرار هدنة... حيث الحاجة إلى الآلاف من الأمريكيين الذين يجمعون بين التدريب المهني والتقني الشامل مع المعرفة باللغات والاقتصاديات وسياسات وتاريخ وجغرافيا وديانات الدول الأجنبية".⁷⁸

مع نشوب الحرب العالمية الثانية، أدركت العسكريات الغربية عموماً، والعسكرية الأمريكية خصوصاً، أهمية الأنثروبولوجيين ومهاراتهم، كاللغات واطلاعهم على العادات والتقاليد والمعرفة الجغرافية للشعوب الأجنبية التي أصبحت الآن في عداد الأعداء. فخدم الأنثروبولوجيون كمحللين في الاستخبارات، وكضباط في الجيش الأمريكي ومدربين للغات والجواسيس. وبشكل تفصيلي، كانت الجهود الأولى لربط الأنثروبولوجيين مع المجهود

الحربي الأمريكي في الحرب العالمية الثانية من خلال إعداد قوائم بالأنثروبولوجيين المهتمين بشكل عام بالأنثروبولوجيا التطبيقية، والمهتمين كذلك بمقاربات الشخصية والثقافة الوطنية للشعوب الأخرى. من هنا، اعتبر أحد الأنثروبولوجيين الأمريكيين الحرب حرب العلوم الاجتماعية، إذ على "العلوم الاجتماعية المشاركة في هذه الحرب لأنها حربها، إذا ما استخدمنا معرفتنا المتراكمة بشكل ذكي، كما نستخدم وسائل النقل والقوة العاملة ومصادرنا الطبيعية ومصانعنا، فمن دون شك سنبريح حرب العلوم الاجتماعية والحرب الفيزيائية."⁷⁹

وكان لهذا التوجه الفردي أن تحوّل إلى توجّه عام، ففي الثلاثين من كانون الأول من العام 1941، أصدرت الرابطة الأنثروبولوجية الأمريكية قراراً جاء فيه "من الأمور المحسومة، أن الرابطة الأنثروبولوجية الأمريكية تضع نفسها ومواردها وخبرات أعضائها المتخصصة في خدمة الدولة من أجل الانتصار في الحرب."⁸⁰ ووفقاً لديفيد برايس، فإن أكثر من نصف الأنثروبولوجيين الأمريكيين كانوا مشاركين في جهود الحرب بشكل مباشر، ونسبة لا بأس منها من النصف الآخر كانوا مشاركين في الحرب بدوام جزئي، حيث إن المعرفة الشاملة للثقافات والشعوب المختلفة والتي جمعها الأنثروبولوجيون خلال عملهم الميداني قد أثبتت أنها ذات قيمة كبيرة للجيش الأمريكي ومختلف الوكالات الحكومية الأخرى. يقول الأنثروبولوجي الأمريكي برنارد كون بهذا الصدد، "فجأة، في العام 1942، كان على الأمريكيين أن يواجهوا "الآخر" بشكل غير مسبوق، ومفهوم الثقافة كان على صلة بهذه المواجهة. فالعدو يجب أن يتم فهمه... اللغات الغريبة كان يجب أن يتم تحليلها لتدرس سريعاً لمن سيصبحون إداريين ومحلّين للأماكن غير المألوفة في العالم... السكان في الداخل والخارج كان يجب السيطرة عليهم وهندستهم اجتماعياً للمشاركة في مجهود الحرب... بذلك أصبحت العلوم الاجتماعية ذي صلة بالواقع."⁸¹

وكان لهذه المشاركة العارمة من قبل الأنثروبولوجيين الأمريكيين في الحرب أن حوّلت الحرم الجامعي للكثير من الكليات والجامعات الأمريكية الى فاعل في مجهود الحرب.

وولدت الحرب أيضاً نوعاً جديداً من الأنثروبولوجيا التطبيقية التي لم تقتصر على فهم ثقافة الشعوب الأخرى فحسب، بل للتلاعب فيها بغرض الهندسة الاجتماعية. فمجتمع الأنثروبولوجيا التطبيقية أبدى اهتمامه بالتغيير الاجتماعي كتغيير تتّم هندسته لغايات منشودة هدفها المزيد من السيطرة على الشعوب.⁸²

وفي عسكرة العلوم الاجتماعية أمريكياً في الحرب الباردة، يؤطّر الأنثروبولوجي الأمريكي ديفيد برايس هذه العسكرة ضمن مفهوم الاستخدام المزدوج، وهما مفردتان مستعارتان من العلوم الفيزيائية، والتي كانت تعني العلاقة التكافلية بين العلوم النظرية المحضة والعلوم التطبيقية. هذه العلاقة التي تحوّل التطوّرات الأكاديمية النظرية إلى منتجات تجارية أو تطبيقات عسكرية. فلعمود، وصفت هاتان المفردتان التطبيقات العسكرية للبحث العلمي، كنظام تحديد المواقع (GPS) الذي استخدم في تطوير الأسلحة دقيقة التوجيه، وتطوير الإنترنت والرادار ومحركات الدفع النفاث والتصوير الرقمي، والتي جميعها طوّرت في الحقل العسكري وانتقلت لاحقاً للحقل المدني.

وفيما يتعلّق بالعلوم الاجتماعية، قامت وكالة الاستخبارات الأمريكية في الحرب الباردة بإنشاء روابط مع الأكاديميا، ففي العام 1951 أطلقت وكالة الاستخبارات المركزية برنامجاً ربطت فيه بشكل سرّي الوكالة مع أكاديميين جامعيين في أكثر من خمسين حرمًا جامعيًا. ثم وُكِّلتهم بتجنيد الطلاب المتميزين وتوجيههم للقيام بدراسات وأبحاث تقع ضمن اهتمام الوكالة. كما قامت وكالة الاستخبارات المركزية بإنشاء جهات تمويل مموّهة لتبدو كما لو أنها تمويل حيادي لمشاريع أبحاث في العلوم الاجتماعية، لتلعب دوراً ضمن نطاق مشاريع مكافحة التمرد التي شرعت الولايات المتحدة الأمريكية فيها بالعالم. وحازت التقارير الإثنوغرافية في هذا السياق على اهتمام الوكالات الاستخباراتية والعسكرية الأمريكية، لتناولها المعرفة الثقافية والاجتماعية حول السكان ولما لها من دور في فتح آفاق لدعم عمليات مكافحة التمرد بهدف السيطرة على السكان.

ولكن واجهت الجهات الحكومية الأمريكية مشكلة في تنظيم واستعادة البيانات الإثنوغرافية، ولحلّ هذه المشكلة قامت ببلورة نظام فهرسة سُمّي ببرنامج ملفات مناطق العلاقات البشرية (Human Relations Area Files)، لعب دوراً باعتباره أداة لمكافحة التمرد. ففي خمسينيات القرن العشرين، تلقّى البرنامج تمويلًا حكوميًا لجمع دراسات ثقافية لمناطق ذات أهمية جيوسياسية في الحرب الباردة. فما بين 1950-1955 قامت وكالات حكومية أمريكية مختلفة بدعم مشاريع بحثية للعلوم الاجتماعية حول جنوب شرق آسيا وإيران. وفي العام 1954، قدّم الجيش الأمريكي عقداً ودمعاً مالياً هو الأكبر للبحث في العلوم الاجتماعية، إذ زوّد المشروع بما يقارب الأربعة ملايين دولار لمدة أربع سنوات، قام خلالها المشروع بجمع بليوغرافيا معرفية للمناطق ذات الأهمية الاستراتيجية، كما قام بترجمة نصوص من لغات أجنبية، وإنتاج كُتَيْبَات عن أكثر من خمسين دولة في مدار الاتحاد السوفيتي والشرق الأوسط وآسيا. وفي العام 1956، تمّ إنشاء مركز بحوث تحت اسم مركز بحوث العمليات الخاصة في الجامعة الأمريكية بتمويل من الجيش الأمريكي. وخلال سنوات عمله الثماني، أنتج ما يقارب الخمسين كتاباً لصالح الجيش الأمريكي عن دول في أوروبا وآسيا والشرق الأوسط وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، حيث قام بتحليل الثقافات الأجنبية لصالح عمليات مكافحة التمرد، حيث كان القائمون على هذه البحوث فرقا متداخلة التخصصات من العلوم الاجتماعية والدراسات المناطقية.⁸³

ومن أبرز المشاريع المعرفية التي تمّ إنشاؤها لدعم الجهود العسكرية والاستخباراتية الأمريكية في الحرب الباردة عموماً، مشروعاً كوردس وكاميلوت. ففي المشروع الأول، وخلال الحرب الأمريكية على فيتنام، قام الجيش الأمريكي في العام 1968 وبالتعاون مع وكالة الاستخبارات المركزية ووكالة التنمية الأمريكية بإنشاء مشروع "العمليات المدنية والدعم التنموي الثوري" (Civil Operations and Revolutionary Development)

(Support CORDS)، إذ تمّ فيه إدماج المعرفة الاجتماعية والثقافية في العمل العسكري والاستخباراتي لعمليات مكافحة التمرد، وقام على جمع المعلومات الاستخباراتية لاستهداف آلاف الفيتناميين بهدف تحييدهم، وإبادة البنية التنظيمية للعدو من خلال الاغتيال أو الاعتقال. فوصل عدد المدنيين الفيتناميين الذين قتلوا أو اختطفوا نتيجة هذا المشروع إلى ما يزيد عن خمسة وثلاثين ألف فيتنامي. حيث جاء في أهداف المشروع "جمع الاستخبارات البشرية والثقافية ولتطوير برامج اقتصادية واجتماعية... لتقويض الدعم للقوات الشيوعية... خاصة أساسية والتي تقود لنجاح المشروع هو نظام فعال لجمع المعلومات وإصدار التقارير والذي يركز على عوامل أساسية وضرورية لتحقيق الأمن والتنمية الاقتصادية والحكم الفعال".⁸⁴

أما في المشروع الثاني، مشروع كاميلوت، فقد ظهر في العام 1964 كنتاج مكتب العمليات الخاصة للبحوث في الجيش الأمريكي، ولعل أفضل طريقة لوصفه هو من خلال الوثائق التي تم تسريبها عن المشروع. فالمشروع هو دراسات هدفها "تحديد جدوى تطوير نماذج عام للأنظمة الاجتماعية والذي سيسمح بالتوقع والتأثير بجوانب سياسية مهمة للتغيير الاجتماعي في الدول النامية بشكل عام. وبشكل أكثر تحديداً، أهدافه هي: أولاً، ابتكار إجراءات لتقييم احتمالية الحروب الداخلية داخل المجتمعات القومية. ثانياً، تحديد بدرجة عالية من الدقة الأفعال التي من الممكن للحكومة اتخاذها لتخفف من الأسباب التي تعطي إمكانية حدوث الحروب الداخلية. وأخيراً، تقييم جدوى وصف خصائص النظام من خلال تحصيل واستخدام المعلومات الضرورية المطلوبة لتحقيق الهدفين الأولين... إذ إن كمية كبيرة من البيانات الأساسية سيتم جمعها واستثمارها لتحديد الأطر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية".⁸⁵

وهنا تتحدّد مهمة الجيش الأمريكي باعتبارها مهمة لمكافحة التمرد، وممارسة عمليات لحل المشاكل السوسيو-سياسية والتي تعتبر جزءاً لا يتجزأ من عمليات مكافحة التمرد

أيضاً، فتناول المشروع النزعات المعادية للولايات المتحدة الأمريكية في مناطق العالم والحلول المعرفية-السياسية المقترحة بلغة بحثية علمية معقمة سياسياً. فلدراسة الصراعات السياسية داخل مشروع كاميلوت، يفترض بأن هنالك انتظاماً في العلاقات البشرية وإمكانية توقعها (Predictability)، ما يتطلب إدماج جهود علماء الاجتماع وعلماء النفس والأنثروبولوجيا وعلماء السياسة والاقتصاد للقيام بهذا التوقع.⁸⁶

وصفت وثائق المشروع الحركات الثورية على أنها أنشطة معادية للولايات المتحدة الأمريكية، وعلى أنها مرض، والمجتمع المصاب به مجتمع مريض يجب علاجه من خلال تدخل الجيش الأمريكي. لكن لا بدّ من الإشارة إلى أن المشروع لاقى معارضة شرسة بسبب اقتران البحث العلمي بالجيش الأمريكي ما أدّى إلى تعطيله منذ البداية. ففي تعقيب من رئيس لجنة التحقيقات الخاصة المتعلقة بمشروع كاميلوت في تشيلي يقول فيه: "من المهم أن نشير إلى شيء أكثر من ذلك، في هذا المشروع يدّعي الباحث بأنه يقوم بتحليل مشاكل الإنسان، الجوع، والبطالة، إلى آخره. ولكن هذه المشاكل الحيوية لا تدرس بسبب أهميتها الكامنة فيها، وإنما لسبب كونها إحدى أسباب ثورة أو انتفاضة مستقبلية. وبلغة أخرى، في مشروع كاميلوت لا يقومون بدراسة البطالة لإيجاد أسبابها والبحث عن حلول لها، إنه ليس سؤال دراسة حاجات الانسان ومحاولة إشباعها. المشاكل الاجتماعية تكمن أهميتها بقدرتها على أن تتحوّل لتوترات. وبالمختصر، هذا المشروع لم يتّجه نحو حلّ مشاكل الجوع في أمريكا اللاتينية، بل لتفادي الثورات."⁸⁷ وبذلك تتحوّل المعرفة النابعة من العلوم الاجتماعية إلى سلاح للتعامل مع، أو توقع أيّ تمردٍ محتملٍ يحمل بذور معاداة الولايات المتحدة الأمريكية في مناطق تعد ذات أهمية استراتيجية بالنسبة لها.

وفي بيئة مشابهة لبيئة الحرب الباردة، أي عقب أحداث 11 أيلول 2001، يناقش ديفيد برايس كيف تحوّلت الجامعات الأمريكية الى أرضية للتدريب السريّ لصالح الأجهزة الأمنية

والعسكرية الأمريكية. فمثلاً، تمَّ إنشاء برنامج بات روبرتس لطلاب الاستخبارات، الذي صُمِّم لتدريب عاملين ومحللين في الاستخبارات الأمريكية من خلال التجنيد في الجامعات الأمريكية للعمل لاحقاً في وكالة الاستخبارات المركزية، حيث تخصص الطلاب في تعلم كيفية تحليل الظروف والنشاطات المختلفة بناءً على فهم شامل ومعرفة عميقة لمناطق محددة من العالم، أي ضمن بيئات عملياتية تعتبر ذات أهمية استراتيجية للولايات المتحدة الأمريكية، منها الشرق الأوسط.

وفي العام 2008، أعلن وزير الدفاع الأمريكي روبرت جيتس عن إنشاء مشروع تحالف مينيرفا، وهو برنامج لوزارة الدفاع الأمريكية مصمم لربط الجامعات بوزارة الدفاع وتحليلها ورؤيتها للعالم. وبحسب جيتس فإن هذا المشروع قائم على اتصالات للجامعات التي ستعزز البحث في بعض الجوانب المتفق عليها، من مثل دراسات حول التأثير الاستراتيجي للتغيرات الدينية والثقافية في العالم الإسلامي وعلاقة الإرهاب بالإسلام، ويساندها مشروع البحث في منظور عراقي (Iraqi Perspective Project) لدراسة المجتمع العراقي بما يخدم الحرب الأمريكية.⁸⁸

وفي البيئة ذاتها التي تشهد عسكرة العلوم الاجتماعية، خصوصاً مع حربي الولايات المتحدة الأمريكية على أفغانستان والعراق، والتي تتسم بكونها حروباً غير متكافئة تخاض فيها المعارك بين الناس، دعا الباحث كيري باتون إلى إنشاء حقل معرفي تخصصي جديد وهو الاستخبارات السوسيو-ثقافية، والذي يعني ويُعنى بـ"دراسة عملية توجيه وجمع البيانات المرتبطة بالعلوم الاجتماعية وتحليلها وإنتاج ونشر تلك البيانات المعالجة لتحقيق الوعي الظرفي في بيئة العمليات العسكرية. وبذلك يتم دمج عدد من الحقول المعرفية، منها الجغرافيا والأنثروبولوجيا وعلم النفس والاقتصاد والدين والشؤون السياسية والأركيولوجيا." هذا الحقل، وفقاً للمؤلف، مؤسس على تجارب كل من كريستوفر كولومبوس و"لورانس العرب" باعتبارها نماذج لمساعي دول وعسكريات على

مدار التاريخ لفهم المناطق سوسيو-ثقافياً، إذ سيكون له دور في إدماج المعلومات السوسيو-ثقافية في العمليات العسكرية ليقوم بتوفير فهم ظرفي وقدرة على التوقع بالتغيرات والتحويلات التي تجري على بيئة العمليات، والقائمة على فهم "كيف نرى أنفسنا، كيف نرى غيرنا، كيف يرانا الآخرون، وأخيراً كيف يرى الآخرون أنفسهم؟"⁸⁹

في ختام هذا المحور، والذي تناول نشأة العلوم الاجتماعية السياسية والعسكرة اللاحقة لها ولمعرفتها، أؤكد على صوابية ادعاء سانجاي سيث بأن المعرفة الحداثية لا تقتصر على كونها تهدف إلى معرفة العالم، بل تمتدُّ إلى تأسيسه وإخضاعه وهندسته اجتماعياً.⁹⁰ فكل المعرفة الحداثية تدخل في علاقات قوة بحسب توصيف وائل حلاق، فالواقع الحدائي قد ارتبط ببني فكر عميقة وسيادة وهيمنة معرفية وهندسة ثقافية كولونيالية وأسس لأشكال مختلفة من الإبادة. وكما أن المعرفة في الحداثة هي سلاح يمكن "أن يتسبب في قدر كبير من العنف القاسي، إلى درجة الإبادة الاجتماعية." وإذ توفر نظريات العلوم الاجتماعية ما يشبه الآلة الفكرية التي تجعل العالم قابلاً لأن يكون موضوعاً للتفكير والهيمنة، ولترويض واقعه الجامح من خلال الهندسة وإخضاعه للتحليلات الفكرية الممنهجة.⁹¹ بكلمات أخرى، لم ينحصر دور العلم فقط في التفسير، بل امتدَّ لتبرير الافتراضات النظرية وصحة القضايا الإمبريالية والاستعمارية، ودورها في "تطوير" السكان اقتصادياً واجتماعياً.

7. نظام التضاريس البشرية: من عنف الحداثة الإستيمية إلى عنفها الفيزيائي

يقول والتر منيولو في استهلال مؤلفه تواريخ محلية/تصاميم عالمية، إنه على مدار الخمسة قرون الماضية، تمَّ سرد التاريخ العالمي من وجهة نظر تاريخ محلي واحد، وهو المتعلِّق بالحضارة الغربية. بمعنى، منح اختراع الغرب للتاريخ العالمي مكانة الحقيقة الوحيدة، تمكَّن خلاله الغرب من الحصول على امتياز سرد تاريخه المحلي وتقديمه على أنه تاريخ عالمي.⁹² وما سهَّل هذه المهمة، هو ما أطلق عليه منيولو في مكان آخر القوة الإستيمية التفاضلية المتجسدة في عنوان مؤلف إيريك وولف شعوب بلا تاريخ، حيث أضحى العنوان استعارة وتمثيلاً لتلك القوة الإستيمية، إذ لم يعنِ وولف أن الشعوب لا تمتلك الماضي ولا الذكريات، أو سجلات لماضيهم هذا، ولكنه اعتمد على معنى التاريخ بالنسبة للغرب وامتداده من اليونان القديمة إلى أوروبا الحديثة، وهو أن كل مجتمع لا يمتلك لغة أبجدية أو كتب بلغة غير اللغات الإمبريالية الست لأوروبا الحديثة، لم يمتلك تاريخاً. في هذه النظرة، يضيف منيولو، بأن التاريخ امتياز الحداثة الأوروبية، و"من أجل أن يكون لك تاريخ، يجب أن تخضع للاستعمار، بما يعنيه ذلك من السماح لنفسك طواعية أو قسراً بأن تكون منغمساً بمنظور للحياة والتاريخ والمعرفة والاقتصاد والذاتية والدين"، المصمَّم على شاكلة تاريخ أوروبا الحديث، والذي تم رفع لوائه اليوم من قبل الولايات المتحدة الأمريكية في يومنا المعاصر.⁹³

هذا الإسكات هو ما أطلقت عليه غياتري سبيفاك العنف الإستيمية. فبالنسبة إليها وفي نصها هل يستطيع التابع الكلام؟ فإن العنف الإستيمية يشمل سلب الفئات المهمشة، المهمشين من العامة ومن غير المختصين والفلاحين الأميين والقباطل والطبقة الدنيا من العمال في المناطق الحضرية، من القدرة على الحديث والتعبير عن أحوالهم، وصولاً إلى إسكاتهم الكلي وعدم الاستماع لهم. كما ويتعرضون أيضاً لجانب استعماري

إبستيمي مدّمّر يتمحور حول تغيير المعرفة المحلية الخاصة بهم لصالح إبستيمولوجيا وممارسات إبستيمية ذات امتياز، وهي في الغالب الإبستيمولوجيا الغربية.⁹⁴

هذا تحديداً ما واجه العراق وشعبه في إبان الاحتلال الأمريكي له، فتحت الادّعاء بإنشاء عراق جديد أو العراق الجديد بحسب لغة السياسة الأمريكيين، تمّ تهميش دور العراقيين وصوتهم في صوغ مستقبلهم وتحديد مصيرهم لصالح ما اعتبرته الولايات المتحدة الأمريكية ضرورات لبناء العراق المطلوب. ويقول الباحث هيثم الناهي بهذا الصدد، إنه بمجرد احتلال العراق قامت الولايات المتحدة الأمريكية بحلّ مؤسساته بقرارات من الحاكم المدني الأمريكي بول بريمر، إذ تمّ تدمير الدولة العراقية ونهبها وتعطيل آليات عملها، ما انعكس سوءاً على إدارة الدولة العراقية التي قادها الحاكم بريمر بمباركة من أحزاب طائفية وعرقية متعاونة مع الاحتلال الأمريكي، والتي أعطته الشرعية المطلوبة لتنفيذ إجراءاته على أرض الواقع.

وشملت إجراءات بريمر تكوين سلّة قانونية لتشريع الوجود الأمريكي في العراق وإدارة كافة شؤونه، الخارجية منها والداخلية. فأصدر أولاً تعليمات تضمنت أحد عشر بنداً، عرفت على أنها "الوسائل التي تعرّف مؤسسات وصلاحيات سلطة الائتلاف المؤقتة".⁹⁵ بناءً عليها، أنشأ مؤسسات احتلالية مكّنت بريمر من إدارة العراق كحاكمه، وكصاحب الصلاحيات المطلقة. كما أصدر بريمر مئة قانون، أو كما عرفت بأوامر بريمر المئة، وهي "تعليمات ملزمة أو توجيهات إلى الشعب العراقي تخلق التبعات الجزائية أو توجيهات لها علاقة مباشرة بكيفية تنظيم حياة العراقيين، ومن ضمنها التغييرات في القانون العراقي".⁹⁶ وإلى جانب التعليمات والقوانين، أصدر بريمر المذكرات والإشعارات العامة، تمثّل الأولى "التوسع في الأوامر والتعليمات عن طريق وضع أو تعديل الإجراءات الملائمة لقانون أو أمر معين". أما الثانية، فإنها تقوم "بنقل نوايا المدير الإداري لسلطة الائتلاف المؤقتة إلى الشعب العراقي، والتي يجب أن تتوافق مع التدابير الأمنية".⁹⁷

ضمن هذه السلة من القرارات والأوامر، لم تقتصر إدارة الائتلاف المؤقتة للاحتلال الأمريكي للعراق على إدارة الشأن والمجتمع العراقيين، بل تجاوزته إلى إعادة صياغتهما وفقاً لرؤيتها. ولعل أبرز التعليمات التي توضح هذا المجال، هي تلك المتعلقة بتوظيف الأموال العراقية وإنفاقها، إذ نصّت إحدى التعليمات على أنّ هذه الأموال "تدار على نحو شفاف ومُنسق مع القانون ذي الصلة لتقديم الغوث وتحقيق الانتعاش في العراق، ومن أجل الشعب العراقي ونيابة عنه".⁹⁸ بناءً عليه، وإلى جانب أوامر بريمر بحل المؤسسات العسكرية والأمنية العراقية وتبنيّ سياسية "تطهير العراق من حزب البعث" ضمن ما سمي ببناء العراق الجديد، فإن الباحث يعتقد بأن الولايات المتحدة الأمريكية أرادت مما سبق إعادة صوغ المجتمع العراقي ودولته وفقاً لأسسها، وما يستجيب ويؤسّس لمصالحها المستدامة في العراق مستقبلاً.⁹⁹ وهو ما تؤكد عليه منتغمري مكفيت، إحدى مصمّات ومسؤولي نظام التضاريس البشرية، بقولها "في الحقيقة، حالما قامت قوات التحالف بإسقاط صدام حسين، أصبحوا بحكم الواقع لاعبين في النظام الاجتماعي العراقي".¹⁰⁰

هذا ما يفسّر ادّعاء عدد من المصادر الأولية حول نظام التضاريس البشرية على أنه قام لأول مرة بتجاوز العنف الإيستيمي تجاه المجتمع العراقي، ففي العلوم الاجتماعية تذهب إلى الحرب، كان هنالك ادّعاء أساسي لمهندسي نظام التضاريس البشرية على أنه لم يكن حتى وقت إنشاء النظام أن أخذت العسكرية الأمريكية بوجهة نظر العراقيين.¹⁰¹ وفي كتاب نظام التضاريس البشرية: البحوث الاجتماعية ذي الصلة العملية في العراق وأفغانستان، الصادر عن الكلية الحربية الأمريكية، قال الباحث إن العراقيين حريصون على أن يُسمعوا وأن يكون لهم صوت، وهو ما جاء للقيام به نظام التضاريس البشرية، أي أن يعطي صوتاً للعراقيين.¹⁰² أما في كُتَيْب فرق التضاريس البشرية، فتضمن القول "بأن فرق التضاريس البشرية تلعب دوراً في تحديد حاجات السكان المحليين، ونقل تصورات الأفراد وإسّماع صوتهم للقيادة العسكرية، حيث إن الصراع حول الحصول على ثقة السكان المحليين هو في قلب عمل فرق التضاريس البشرية".¹⁰³ وهو ما تناوله الباحث بول جوزف

نقلًا عن فرق التضاريس البشرية، وقول العاملين فيه بأن إدماج العلوم الاجتماعية في المجهود العسكري في نظام التضاريس البشرية جاء لهدف رؤية العالم من خلال أعين الغير (السكان المحليين)، ومحاولة الاندماج في طبيعة وأنماط حياتهم اليومية.¹⁰⁴

وبعيداً عن ديباجات الصوابية السياسية والأخلاقية التي يدّعيها نظام التضاريس البشرية والعاملين فيه، فإن مكفيت قد قدّمت رؤية صريحة لموقعية العلوم الاجتماعية وعلمائها عموماً، والأنثروبولوجيا على وجه الخصوص، في علاقتها مع مكافحة التمرد الممارسة في العراق من قبل القوات العسكرية الأمريكية، فتقول "لهزيمة التمرد في العراق، على القوات الأمريكية وقوات التحالف تحديد واستغلال البنية العشائرية والقبلية للبلد، إلى جانب السلطة التقليدية واستخدام الإسلام كأيدولوجيا سياسية، وتضارب المصالح بين السنة والشيعة والأكراد، والتأثيرات النفسية للحكم الشمولي والفجوة بين المناطق الحضرية والريفية."¹⁰⁵ ويعلق الأنثروبولوجي روبرتو جونزاليز على هذه الصراحة الفجة، بأن نظام التضاريس البشرية هو أكثر من مقارنة لكسب العقول والأفئدة، إذ يقوم أساساً على تحديد واستغلال الديناميكيات العشائرية والسياسية والدينية والطائفية. من هنا، فالتضاريس البشرية لا تقوم فقط بتحديد أو تصنيع الاختلافات الاجتماعية، بل القابلية للتلاعب بها، وهو ما يشكل النمط القديم للاستعمار وسياسته في "فرّق تسد."¹⁰⁶ وذلك على الرغم من الموقف الأمريكي السلبي تجاه العشائر في العراق في بداية الغزو الأمريكي، إذ اعتبر الساسة الأمريكيون أنه لا مكان للعشائر المتخلفة وفقاً للرؤية الأمريكية حول العراق الجديد والحديث والمتحضّر. ولكن مع مرور الوقت ولأغراض عسكرية متعلقة بمكافحة التمرد تمّ التنازل عن هذا الموقف. ويفسّر الباحث هذا التغيير في التعاطي مع العشائر العراقية من زاوية أن العمل العسكري في بيئة معقدة ينتج عنهم عواقب غير متوقعة من الممكن لها أن تتعارض مع الاستراتيجية الكلية. ففي هذه الحالة، بدل من أن تقوم الوحدات العسكرية الأمريكية بدعم السلطة العراقية المركزية، روجت القوات الأمريكية للقيادة العشائرية في المجتمع العراقي.¹⁰⁷

ولذلك، فنحن أمام نوع آخر من العنف الإستيمى والقائم على التلاعب بالمدارك والبنى المختلفة للعراقيين لتحقيق الأهداف العسكرية والسياسية الأمريكية في العراق. وهو ما يؤكّد عليه أحد القادة العسكريين المسؤول عن فرق التضاريس البشرية في وحدته العسكرية بقوله "إن فرق التضاريس البشرية تساعد قيادة الجيش على فهم البعد البشري للبيئة التي يعملون فيها، كما هو حال محلي الخرائط الذين يساعدونهم في فهم الجسور والأنهار وأشياء من هذا القبيل... إذا فهو عملية استغلال لخبرات العلوم الاجتماعية عسكرياً." ضمن هذا التصور، يتمّ تصوير الناس والتعامل معهم على أنهم حيّز جغرافي يتمّ استعمارهم، والكائنات البشرية كأرض أو إقليم يجب أن يؤسّر.¹⁰⁸ كما أن التضاريس البشرية مفهوم يؤطر المجتمع البشري كشيء قابل للقياس، ساكن وثابت، وقابل للتوقع، وكجسد خامل يتنافس عليه المتمرّدون والعاملون في مكافحة التمرّد.¹⁰⁹

ولكن كيف جاءت مفردتا التضاريس البشرية إلى الوجود؟ وكيف تحوّلت لاحقاً إلى نظام؟ وما هي بنيته التنظيمية؟ والهدف المعلن عنه لدوره؟ بداية، تمّ تعريف التضاريس البشرية "بالعناصر الاجتماعية، الإثنوغرافية، الثقافية، الاقتصادية والسياسية للسكان الذين تعمل بينهم القوة العسكرية... معتمدة على البيانات السوسيو-ثقافية والأنثروبولوجية والإثنوغرافية."¹¹⁰ وبذلك أصبح المفهوم يحظى بشعبية في الدوائر العسكرية الأمريكية، على الرغم من أن التضاريس البشرية غالباً ما تتعارض مع التضاريس الجيو-فيزيائية، حيث إن الأخير مفهوم مألوف للضباط الذين تدربوا على خوض حروب تقليدية، أما التضاريس البشرية فيرتبط بمنحى أن جنود القرن الحادي والعشرين سيخوضون حروباً متمركزة حول السكان، والنجاح الأساسي في هذه الحروب يتأتّى من السيطرة على السكان.

لكن لا يعدّ مفهوم التضاريس البشرية جديداً، إذ إن له جذوراً تعود إلى ما يزيد عن نصف قرن مضت، عندما ظهر تقرير حكومي حول حركة الفهود السود الأمريكية ومجموعات أخرى، وعنى المفهوم منذ البداية السيطرة على السكان. إذ جاء فيه: "حرب الغوار

التقليدية... يتمُّ الشروع فيها من قبل قوات غير نظامية، تقود بإعداد أسلحة خفيفة ودعم لوجستي من السكان في العموم، كما أنها تمتلك القدرة على إحكام السيطرة عليهم، والاحتفاظ بالمبادرة من خلال سيطرتها المتفوقة على التضاريس البشرية.¹¹¹ كما ظهر مفهوم التضاريس البشرية في كتابات الصحفي الأمريكي اليميني روبرت موز، حيث أشار فيه إلى المتمردين من أمريكا اللاتينية بقوله: "فشل حروب الغوار الريفية في حشد تأييد واسع لها في تلك المناطق، يعود إلى وجهة النظر المشوّهة للإمكانات السياسية للفلاحين، والفشل في دراسة التضاريس البشرية."

أما الدراسات الحديثة التي تناولت التضاريس البشرية فمنها ما نشره الكولونيل الأمريكي رالف بيترز في عام 2000، تحت عنوان **التضاريس البشرية للعمليات الحضرية**. تضمّن هذا المنشور المزاجية الدموية بين أطروحة صاموئيل هنتنغتون **صراع الحضارات** من جهة، والحرب من جهة أخرى. فقد قام بنقاش أن العسكرية الأمريكية عليها أن تلحق حجباً معقولاً من القتل للترويج لمصالحها الاقتصادية، وأن تلحق اعتداءً ثقافياً على الخصم موجّهاً للسكان المتمردين بهدف السيطرة عليهم وتحييدهم. فمركز الثقل في العمليات العسكرية الحضرية هم البشر والتضاريس البشرية.

لاحقاً، تبني عدد من العسكريين الأمريكيين المفهوم. فالكولونيل مايكل موريس أشار إلى أن هدف القاعدة وبنيتها التحتية السرية، حكومة الظل، هو السيطرة على التضاريس البشرية. والكولونيل الأمريكي ريتشارد مكنويل اقترح على القوات الأمريكية التي تدرب القوات العراقية أن تفهم التضاريس البشرية للمجتمع. والكولونيل الأمريكي فريد رينزي قال بضرورة القيام بالاستخبارات الإثنوغرافية للمساعدة في فهم المجهول، أي التضاريس البشرية. وعن استخدام مصطلح التضاريس البشرية في النظام، تقول كل من مكفيت ولورانس أنه جاء للتعبير عن جهود العلوم الاجتماعية عسكرياً، من حيث إن المفاهيم الأولى يجب أن تكون مفهومة ومألوفة للعسكريين وضمن معجمهم العسكري حتى تتحقق فاعلية النظام.¹¹²

ويلخص أحد الباحثين الأمر بقوله: "فالتضاريس البشرية مقولة مصممة لوصف البنى السياسية والاجتماعية للسكان المحليين ضمن بيئة العمليات للقوات الغازية، وتقوم هذه المعلومات بمساندة طرق مكافحة التمرد المتمركزة حول السكان للتواصل معهم، والمساهمة في ذات الوقت في تدمير وتعطيل وإقصاء العناصر المتمردة في المجتمع. من هنا، ظهرت الحاجة الملحة للاستخبارات الثقافية كمكوّن أساسي لمكافحة التمرد المتمركزة حول السكان، ما أدى الى ظهور الأنثروبولوجيين والإثنوغرافيين والعديد من علماء العلوم الاجتماعية داخل الجهود العسكرية في كل من أفغانستان والعراق، والذين سعوا لإعارة خبراتهم ورؤاهم حول الفضاءات السوسيو-ثقافية لتصميم العمليات العسكرية وتنفيذها ومتابعتها وتقييمها."¹¹³

وبناءً عليه، سنتناول الظروف التي أفضت وهيات المجال لخلق نظام التضاريس البشرية (أي تحويله من تضاريس بشرية إلى نظام التضاريس البشرية) وفقاً للمصادر الأولية المتاحة، وهي لا تختلف في أطروحتها العامة عمّا تناولناه حول الانعطافة الثقافية في الحرب على العراق، إذ إنها تقدم تأكيداً على هذا الطرح، ولكن لا بدّ من الوقوف على تلك الظروف بلغة القائمين على البرنامج، وتمحيصاً لرؤاهم عنه. بداية، وفي معرض تقديمه لكتاب **العلوم الاجتماعية نذهب إلى الحرب**، يوضع القائد السابق للقوات الأمريكية في العراق الجنرال ديفيد بترايوس نظام التضاريس البشرية ضمن مجهودات الولايات المتحدة الأمريكية في مكافحة التمرد، أو ما أطلق عليه بالعمل الاجتماعي المسلح. إذ بالنسبة إليه، لا تقتصر الحرب على حملات عسكرية دفاعية وهجومية فقط، بل تتضمّن عمليات بناء الاستقرار.

وإلى جانب القوة العنيفة والمميّنة لمجابهة العدو، هنالك مهمات إضافية تقع على عاتق القوات الأمريكية العسكرية، تتراوح ما بين المساعدة في تطوير القوات العسكرية والشرطية، مروراً بإعادة تأسيس المؤسسات الحكومية والمساعدة في إعادة تقديم الخدمات الأساسية للسكان، وليس انتهاءً بتطبيق حكم القانون. ووفقاً لبترايوس، فإن ضمان نجاح هذه

الجهود على المدى الطويل يتطلب فهم الثقافات المحلية والأديان والعادات والقوانين ومبادئ التنظيم الاجتماعي وبناءه، وهو ما افتقرت إليه القوات العسكرية الأمريكية في بدايات الحرب، إذ لم تكن لديها فهم دقيق للدول التي قاموا بغزوها، فطبيعة الحرب العامة كانت تتمحور حول تدريب وتنظيم وتسليح القوات الأمريكية بشكل أساسي للقيام بحملات عسكرية كبرى، وليست مهياًة للقيام بعمليات لمكافحة التمرد.

من هنا تبلورت مبادرة نظام التضاريس البشرية لسدّ تلك الفجوة، إذ إن الهدف من وراء هذا البرنامج "هو تزويد الجنود في العراق وأفغانستان بالمعرفة حول المجتمعات المحلية التي تشكل بيئة العمليات للجيش الأمريكي، تلك المعرفة قائمة على مفاهيم العلوم الاجتماعية والبحث الواسع والشامل بدلاً من القصص الشائعة والشائعات والتخمين. فنظام التضاريس البشرية جاء كمحصلة للاعتراف بأنه إذا ما كان على الولايات المتحدة الأمريكية أن تموضع قواتها العسكرية بين سكان أجنبي، فيجب عليها أن تزود القوات بمعرفة حساسة حول الثقافة والنظام السياسي والاقتصاد والمعتقدات الدينية لهؤلاء السكان، مبنية على مقولة أن التضاريس الحاسمة في حملات مكافحة التمرد هي التضاريس البشرية. ومن هنا ساهم نظام التضاريس البشرية في فهم تلك التضاريس."¹¹⁴

في هذا الطرح، يركز بترايوس على الجهود العسكرية-المدنية للقوات العسكرية في العراق، وفي هذه الجهود تصبح المسافة والحدود الفاصلة بين ما هو مدني وما هو عسكري ضبابية، إذ إن هذا الدور المنوط بالنظام والناظم لعمله أريد له أن يقوم بعسكرة المجال المدني بأكمله، لتحقيق أهداف وغايات عسكرية، سيتم ترجمتها إلى انتصارات سياسية.

تؤكد مساهمة مكفيت في الكتاب المحرّر هذا الطرح، والتي جاءت تحت عنوان "جسر الهوة بين العسكرية والأكاديمية."¹¹⁵ فتبتعد الأكاديمية كل البعد عن البحث العلمي الهادف لبلورة السياسات، أو عن تلك التي على صلة بالأمن القومي والعمل الحكومي،

فجّل ما تريده آلة الأكاديميا هو إغناء الحقول المعرفية بمعرفة نقدية، والتي في جزء كبير منها على انفصال بالواقع العملي، لذلك أطلقت مكفيت على هؤلاء الأكاديميين "طائفة الأكاديميين الذين ليسوا على صلة بالواقع". وبالنسبة لمكفيت، لا يقل الأمر سوءاً بالنسبة للعسكرية الأمريكية، فهناك "طائفة الداعمين للعمليات العسكرية الكبرى التقليدية"، وهي التي تركز على الطريقة الأمريكية التقليدية لخوض الحرب من خلال التأكيد على قوة النيران والتكنولوجيا المعقدة كمحددات لخوض تلك الحروب، مع تهميش الحروب الصغيرة والأعداء غير النظاميين وغير التقليديين، مما جعل أطروحات هذه الطائفة مركزية بالنسبة للعسكرية الأمريكية، وجعلتها في الوقت ذاته متروكة وغير مهياًة لحرب قائمة على مكافحة التمرد كما هو الحال في العراق. ففي العراق، وجدت العسكرية الأمريكية نفسها تقاتل خصماً غير مألوف وغير اعتيادي، يمتلك أعرافاً قتالية مختلفة عن تلك التي تمتلكها العسكرية الأمريكية، وسلاحه المخترار والأساسي هو العبوات الناسفة المميّنة.

ولكن مع التحوّلات الحاصلة في بيئة العمليات في العراق، تموضع كل من مكفيت ولورانس نظام التضاريس البشرية باعتباره ابتكاراً نجم عن الفشل الأمريكي في كل من العراق وأفغانستان، وأن معرفة التضاريس البشرية هي بأهمية الدروع الواقية من الرصاص والسيارات المصفحة، حيث صمم نظام التضاريس البشرية لمعالجة قصور الفهم العسكري حول السكان في كل من العراق وأفغانستان. وبذلك تمحور دور نظام التضاريس البشرية لجسر الهوة آنفة الذكر، من خلال نقل بؤرة التركيز على عمليات مكافحة التمرد التي تسترشد بالمركز الثقلي العسكري الجديد للحرب، ألا وهو السكان في بيئة العمليات، ودور نظام التضاريس البشرية في فهم مركز الثقلي هذا بلغة تتواصل فيها الأكاديميا مع العسكرية الأمريكية. فجميع مهمات بناء الأمة (Nation Building) تطلبت من العسكرية الأمريكية أن يعملوا مع سكان مدنيين أجانب والذين يمتلكون ثقافة ولغة وتنظيماً اجتماعياً مختلفاً عن الأمريكيين. هذه الظروف أدت إلى استيعاب أن الثقافة لم تكن إطاراً مفاهيمياً للتحليل

الاستراتيجي عالي المستوى فقط، بل مضاعفة للقوة على المستوى العملياتي، حيث قد سهّل هذا النوع من المعرفة الاشتباك مع القبائل والعشائر (Tribal engagement)، وحسّن من خطط التنمية الاقتصادية، وحتى أنه قاد إلى تعريف واستهداف أهداف ذات قيمة.¹¹⁶

ويقدم كل من جيمس دوروغ وجانيس لورانس رؤيتهما حول الظروف التي أدت لنشأة نظام التضاريس البشرية. فالنسبة لدوروغ، وبناءً على تشخيصه لبيئة الصراع في العراق، فإن الشراكة مع السكان المحليين تشكل الفارق بين النجاح والفشل، ومن هنا كانت حاجة لانتعاش ثقافة متمحور حول إدماج العسكرية الأمريكية لرؤية العراقيين للعالم ضمن عملية صنع واتخاذ القرار العسكري الأمريكي. وقد رأى أن هنالك إدراكاً متنامياً لدى العسكرية الأمريكية بأن تحقيق النصر في مكافحة التمرد لا يقتصر فقط على القوة العسكرية وحدها، بل هنالك حاجة إلى إعادة تشكيل البيئة العملياتيّة لصالح القوات العسكرية الأمريكية لتساهم في ردع المتمردين. ولتحقيق ذلك جاء نظام التضاريس البشرية ليزوّد العسكرية الأمريكية بمعرفة حميمة عن اهتمامات السكان. وبناءً عليه رسم خرائط لتوزيع القوة في بناهم الاجتماعية، وإبراز تعقيدات الثقافة المحلية.

من هذا الباب ووفقاً لدوروغ، فإن إنشاء نظام التضاريس البشرية قام بسدّ الفجوة بين العمل الاستخباراتي والعمل الأكاديمي لنظام التضاريس البشرية. يدّعي أحد القادة العسكريين بأن المشكلة في النظام والعاملين فيه أنهم يرفضون استخدام مفردة الاستخبارات. ولكن بالنسبة إليه تعد جميعها عملاً استخباراتياً، وقال "يمكنك أن تصفها بالبحث، يمكن لك أن تدعوها بالمعلومات، لكنها جميعها عمل استخباراتي". فالنجاح في العمليات العسكرية يعني القدرة على توسط الأنظمة المعقدة ودراساتها بعمق، حيث الظاهرة التي لا يمكن التنبؤ بها تنبع من هذه الأنظمة المعقدة. كما وظهرت مقاربة سؤال كيف يرى السكان المحليون أنفسهم، وكيف يرون العسكرية الأمريكية وممارساتها من وجهة نظرهم، من هنا قام البرنامج أيضاً بترجمة الأنظمة الاجتماعية كشبكات مشبعة

ثقافياً إلى معلومات قابلة للهضم عسكرياً، تساهم في رفق القادة العسكريين بالوحي الظرفي المطلوب للعمل في بيئة العمليات والتأثير فيها.¹¹⁷ أما بالنسبة لجانيس لورانس، فإن نشأة نظام التضاريس البشرية أتت استجابة للحاجة العمليانية الملحة للمعرفة السوسيو-ثقافية، ودورها في توجيه مهمات الحرب غير النظامية في العراق. فبعد الاجتياح، احتاجت العسكرية الأمريكية ما هو أبعد من التكنولوجيا والقوة النارية المميّنة والمتفوقة لتحقيق المهمات، فعليها أن تمارس عمليات مكافحة التمرد وصناعة الاستقرار، في بيئة تتسم بالتعقيد والتقلب ويحيط بها الغموض واللايقين.¹¹⁸

وفي مستهل كتاب نظام التضاريس البشرية: البحوث الاجتماعية ذات الصلة العمليانية في العراق وأفغانستان، يتساءل الباحث إذا ما كان للثقافة تأثير في الاستراتيجيات العسكرية، وإذا ما كان هنالك ترابط بين التمرد والمجتمع. وبناءً عليه هل لغة الحرب تحتاج إلى معجم سوسولوجي ليتم فهمها؟ وفي إجابته عن هذه الأسئلة يقول إن الصراع المسلح هو مشروع بشري، وفهم البعد البشري في بيئة العمليات يجب أن يكون جزءاً لا يتجزأ من التخطيط الناجح للعمليات العسكرية، وأن مراقبة العمليات العسكرية يؤطرها ضمن ضباب الحرب الذي تحدث عنه كلاوزفيتز. فالتضاريس البشرية في الحرب دائماً ما تتحول وتتغير بطرق دقيقة، ونتيجة لذلك، هذا الوضع يتطلب حلّ شيفرة مستمر للتضاريس البشرية في العمليات العسكرية.

إلا أنه في بدايات الحرب على العراق، لم تكن هنالك حاجة ملحة لإيجاد نظام كنظام التضاريس البشرية، إذ كان هنالك قدرات سوسيو-ثقافية موجودة داخل الأولوية العسكرية والتي تشمل على سبيل المثال فرق الشؤون المدنية، ومفازر العمليات النفسية التكتيكية. ففرق الشؤون المدنية تم تكوينها كوظيفة لإدارة المشاريع وتقييم وإصلاح وبناء البنية التحتية، وتقييم الممارسات الزراعية. بهذا الدور كانوا أصولاً للتقييم والمراقبة والتي في الجانب النظري منها تعتمد على التحليل السوسيو-ثقافي في بيئة العمليات لتحديد

الأولويات. في المقابل، فرق العمليات النفسية عملت على المستوى التكتيكي من خلال إيصال رسائل وصناعة بروباجاندا محددة للسكان، ولكنها لم تجمع معلومات للتأثير في تفكير وتخطيط العمليات العسكرية.

كما وجد عدد من المنظمات التي تعمل في بيئة العمليات كانت توفر استقصاءً وتحقيقاً اجتماعياً عنها، فمثلاً الوحدة الحربية الاستشارية العراقية (Iraqi Advisor Task Force) استثمرت في الخبرات المحلية تحت قيادة قوات العمليات الخاصة الأمريكية للتحقيق في الجوانب الاجتماعية. كما تكونت فرق إعادة الإعمار التي قادها ضباط عسكريون، من 50-100 شخصية، وعناصر من وزارة الخارجية الأمريكية ووكالة التنمية الأمريكية ووزارتي الزراعة والعدل إلى جانب وكالات أخرى. لكن ما يميّزها سلباً، أنها لم تقع تحت إمرة قيادة الأولوية العسكرية، ونتيجة لذلك كان من المرجح أن تختلف طبيعة عملها وأولوياتها عن تلك المتعلقة بالوحدات العسكرية. كما أن هذه المنظمات لم تركز على تقديم فهم محسّن حول السكان لتعزيز معرفة قيادة الأولوية العسكرية كما هو حال نظام التضاريس البشرية. كما أن قدرات تلك المنظمات والوحدات سطحية، إذ تركز على المعونة وإعادة الإعمار بدلاً من التفاعل الهادف مع السكان والقائم على منهجية بحثية توفر منتجات نهائية مفيدة للقائد العسكري حول بيئة العمليات. أما نظام التضاريس البشرية فوعد بقدرات سوسيو-ثقافية مختلفة وفريدة، إذ إن الفرق تقوم بعمل أبحاث في العلوم الاجتماعية بين السكان، ويقومون باطلاع طاقم الوحدات العسكرية مباشرة على نتائج أبحاثهم. ولذلك فإن عملهم يساهم في تخطيط عمليات عسكرية أكثر فعالية من خلال تقديم فهم حول السكان المحليين.

ولكن وفقاً للباحث، هنالك افتقار لسردية موحّدة حول أسباب نشوء نظام التضاريس البشرية، ففي الرواية السائدة والمهيمنة يتمّ التأكيد على أن نظام التضاريس البشرية أداة لمكافحة التمرد تم ابتكارها لتزويد العسكرية الأمريكية بمعرفة سوسيو-ثقافية لبيئة العمليات. من وجهة نظر خارجية إلى الداخل، من السهل ربط برنامج البحث في

العلوم الاجتماعية بمتطلبات القوة العسكرية في العراق وأفغانستان، حسبما نصَّ عليه صراحة كُتَيْب عقيدة مكافحة التمرد الصادر في العام 2006. كما ناقشت الرابطة الأنثروبولوجية الأمريكية بأن برنامج التضاريس البشرية يلعب دوراً تكتيكياً في حرب مكافحة التمرد. وفي دراسة حول فرق التضاريس البشرية، ناقشت أن مقارنة مكافحة التمرد المتمركزة حول السكان تطلب استخراج التعاون من السكان، وأن الأدوات الرئيسية لتحقيق هذا الدور في الميدان هو من خلال فرق التضاريس البشرية. ولكن إذا ما كانت مكافحة التمرد هي الحل كما يقول الكاتب، فإنه يجب علينا البحث في المشكلة لفهم لماذا اعتبر نظام التضاريس البشرية ذا قيمة.

من خلال هذا البحث حول المشكلة لفهم أهمية النظام، يتتبع الباحث مساراً آخرَ لتظهيره، وهي من خلال الكارثة العسكرية التي سببتها العبوات الناسفة في العراق خصوصاً، والفشل العسكري الذي منيت به الولايات المتحدة الأمريكية في العراق ووصولها لحافة الهزيمة النهائية، ما استدعى الحاجة إلى تطوير مقارنة لمكافحة التمرد فيه. فالعبوات الناسفة في العراق كانت حجر الأساس لتحفيز الحاجة لإنشاء نظام التضاريس البشرية، إذ تطور عن عدد من مبادرات مكافحة العبوات الناسفة في الجيش الأمريكي. فمثلاً في العام 2003، تم تشكيل خلية مشتركة لمكافحة العبوات الناسفة سعت إلى استغلال وفحص الأدلة الفيزيائية حول آثار العبوات من مشهد العمليات، وأصبحت هذه الخلية في العام 2004 تحت رعاية وحدة البحرية لتقنيات التخلص من العتاد العسكري. وفي العام 2003 أيضاً، تمَّ تشكيل مركز تحليل العبوات الناسفة والذي وقعت على عاتقه مسؤولية فصل مكونات بقايا العبوات، والتحقيق حولها، وتزويد القوات العسكرية بمعلومات استخباراتية حولها. ولكن وفقاً لمسؤولين في المركز، فإن الأخير ركز على القضايا الاستراتيجية بدلاً من القضايا التكتيكية التي تثيرها العبوات الناسفة.

ومع تحمل الجيش الأمريكي وطأة العبء الأكبر لمكافحة العبوات الناسفة، قام الجنرال الأمريكي ريتشارد كوردي في العام 2003 بإنشاء وحدة الجيش الخاصة بمكافحة العبوات الناسفة، ركزت فيه الوحدة على جمع المعلومات الاستخباراتية فيما يخص العبوات الناسفة لإعطاء توصيات حول كيفية محاربتها. مع نشوء هذه الوحدة، انضم إليها الكولونيل ستيفي فونداكارو، الذي سيصبح لاحقاً القوة المحركة وراء تطوير نظام التضاريس البشرية ومديره. وخلال تواجده في العراق، كان فونداكارو يعمل على مقربة من أندري جاكسون الذي عمل في مشروع التحضير الثقافي للبيئة، والذي هدف إلى تزويد القادة على الأرض بأداة تسمح لهم بفهم الجوانب الثقافية ذات الأهمية العملية، كالتقسيمات الإثنو-دينية والعشائرية في المجتمع العراقي. ولذلك كان من خلال بنية مكافحة العبوات الناسفة أن تشكلت العلاقات الأساسية لشبكة نظام التضاريس البشرية.

ومع مرور الوقت، كان تأثير الحلول التقنية لمواجهة العبوات الناسفة والكارثة التي أحدثتها في بيئة العمليات العراقية محدوداً، ما استدعى تحولاً في التركيز من محاربة العبوات الناسفة إلى الهجوم على الشبكات البشرية التي تقف وراءها، فأصبح التركيز بشكل أكبر على تقنيات الاستخبارات وبحوث العلوم الاجتماعية لفهم طبيعة الشبكات الاجتماعية في العراق. وكجزء من الجهود التي تفحص النسيج السوسيو-ثقافي الذي يقف وراء الشبكات البشرية للعبوات الناسفة، ظهر برنامج التحضير الثقافي لبيئة العمليات (Cultural Preparation of the Environment) في أبريل 2005. في مرحلة التجريب للبرنامج ركزت على مقاطعة ديالى في العراق، والتي هدفت إلى تطوير تصنيفات للبيانات السوسيو-ثقافية التي تمّ جمعها في الميدان. ولكن ثبت فشل البرنامج وانعدام فعاليته نتيجة أن الباحثين العراقيين المساعدين للقوات الأمريكية لم يعطوا نتائج وبيانات دقيقة. كما لم يستطع البرنامج الإجابة عن الأسباب التي تقف وراء سكوت السكان أو موقفهم الحيادي تجاه العبوات الناسفة، فكان العسكريون الأمريكيون يردّون بحيرة "لكننا الأخيار"، نتيجة فشلهم في فهم موقف السكان المحليين وعدم إخبارهم بأيّ هجوم متوقع أو أماكن العبوات الناسفة.

من هذا الفشل، وبلغة مكفيت، كانت هنالك حاجة إلى كيان قادر على القيام ببحوث مستقلة في منطقة الحرب، وتقديم النصائح للقوات العسكرية. فالحل بالنسبة لها يتمحور حول القيام بعمل أبحاث على الأرض، فحين الحديث عن العراق وأفغانستان، فإن هذه المجتمعات كانت مقفلة أمام البحث العلمي للعلوم الاجتماعية لما يزيد عن ثلاثة عقود. وهو ما أكد على ضرورته أحد القادة العسكريين بقوله: "ما نحتاجه هو أناس، بشر في وحداتنا العسكرية لعمل أبحاث والذهاب الى العمليات يومياً لتفسير المشاكل وإعطاء توصيات يمكن ترجمتها لأفعال عسكرية."¹¹⁹

في هذا الإطار، تلاقت الظروف والمعطيات لتشكيل نظام التضاريس البشرية، حيث اعتبرت عملية البحث عن حلول لكارثة العبوات الناسفة في صلب المساعي التي تم إنشاء النظام من أجلها، فحسب تقدير مكفيت فإن "العبوات الناسفة تعتبر من أكثر الأسلحة فتكاً بقوات التحالف في العراق، ولذلك فهزيمة استخدامها من قبل المتمردين أمر في غاية الأهمية وصعب للغاية في ذات الوقت. إلى هذا اليوم، ركزت مجتمعات وزارة الدفاع الأمريكية للعلوم والتكنولوجيا على تطوير حلول تقنية لخطر العبوات الناسفة، لكن من وجهة نظر أخرى، فإن العبوات الناسفة منتج للإبداع والتنظيم الاجتماعي البشري. فإذا ما فهمنا السياق الاجتماعي الذي يتم فيه اختراعها وبنائها واستخدامها، سيتوفر لنا سبل إضافية لهزيمتها. وكما لاحظ الجنرال جوزيف فوتل، رئيس الوحدة المشتركة لمكافحة العبوات الناسفة في البنتاغون، على القادة أن يركزوا أقل على القنبلة وأكثر على صانعيها. هذه النقلة من التركيز على تكنولوجيا العبوات الناسفة إلى التركيز على صانعيها يتطلب فحص البيئة الاجتماعية التي يتم فيها اختراع وتصنيع وتوزيع واستخدام العبوات الناسفة."¹²⁰

وبذلك تطور البرنامج، واستدعي إدماج خبرات مدنية لعلماء العلوم الاجتماعية في الوحدات العسكرية، حيث لم توجد قوة مدنية في وزارة الدفاع الأمريكية قادرة على سدّ هذه الفجوة. وكان دورهم يتمحور حول بحث وتفسير وأرشفة وتزويد معرفة

ومعلومات ثقافية لتحسين الفاعلية العملية العسكرية. متجاوزة في ذلك أداة التحضير الثقافي لبيئة العمليات من حيث توفير البعد البشري في التقييم العسكري للطبقات السوسيو-ثقافية للتضاريس البشرية. وأصبح خلالها البرنامج يعرف كأداة لمكافحة التمرد المتمركزة حول السكان، والتي حاولت الاشتباك مع الخصم ليس من خلال استخدام القوة المفرطة، بل من خلال حرمان المتمردين من دعم السكان المحليين. ووفقاً للكتاب، فإن استدعاء الخبرات المدنية للانضمام للمجهود العسكري الأمريكي على صيغة تجنيد علماء العلوم الاجتماعية في نظام التضاريس البشرية من الأكاديميا، قد أثار وأثقل كاهل البرنامج والنقاش الذي دار حوله. فهذا الاستدعاء أعاد إلقاء الضوء على العلاقة التاريخية ما بين العلوم الاجتماعية والحرب والتي سبق أن ناقشناها في هذا الفصل، بدءاً من نشأة حقل الأنثروبولوجيا أمريكياً في منتصف القرن التاسع عشر بغرض فهم وإدارة السكان الأصليين، وصولاً للحرب الباردة والاستخدامات المتعددة للعلوم الاجتماعية لتقويض التأثير الشيوعي في دول العالم، وإرساء مصالح الولايات المتحدة من خلال بلورة فهم أعمق حول شعوب وسكان المناطق ذات الأهمية الاستراتيجية لغرض التأثير بهم.

وعلى ذات المنوال، ينسج كُتَيْب فرق التضاريس البشرية الأسباب وراء تشكيل النظام، في محاولة لموضعة نظام التضاريس البشرية في سياق التحولات التي طالت الحرب على العراق، وتعريف من سينضمون إلى عداد فرق التضاريس البشرية بخلفية الحروب التي تشهدها الولايات المتحدة الأمريكية. بداية، يؤطر الكُتَيْب الحرب على العراق وأفغانستان في إطار الحروب غير النظامية القائمة على عمليات لمكافحة التمرد، والتي يتمحور شرطها الأساسي في انتقال تركيز القائد العسكري من العمليات التقليدية والبحث عن العدو إلى التركيز على بيئة الصراع بما تحويه من السكان المحليين الذين يعتبرون جانباً مهماً وحساساً لتقييم القائد العسكري للوضع العسكري العام.

ففي بيئة الحروب غير النظامية، كما هو الحال في العراق، تعتبر الرؤى حول الثقافة والتصورات والقيم والمعتقدات والاهتمامات للسكان المحليين من متطلبات تخطيط وتنفيذ العمليات العسكرية، إذ إن البعد البشري هو جوهر بيئات الحروب غير النظامية. ولذلك، فإن فهم الثقافة المحلية والعوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية يعد أمراً حاسماً لنجاح عمليات مكافحة التمرد. هذا التوجه يتطلب خلق بحوث وتحليلات اجتماعية ترتبط ب/وتتواجد في العلوم الاجتماعية، فالبحوث حول السكان المحليين تزود بمعرفة يتم الإشارة إليها بالتضاريس البشرية، أي عناصر البيئة العملية التي تشمل العوامل الثقافية والسوسولوجية والسياسية والاقتصادية.

ولذلك، جاءت مهمة نظام التضاريس البشرية متمركزة حول القيام ببحوث في العلوم الاجتماعية على صلة بالواقع العملي العسكري، ولتزود القادة بقدرات معرفية وإطار ثقافي تحليلي متماسك لخدمة التخطيط العملي ووضع القرار والتقييم العسكري. ويتضمن بيان مهمة النظام ثلاثة نقاط مركزية: الأولى، القيام بأبحاث العلوم الاجتماعية من خلال استدخال علماء العلوم الاجتماعية في المجهود العسكري باعتبارهم خبراء في تطوير وتنفيذ البحوث الميدانية، فالفرق تقوم بأخذ تخطيط الحملات العسكرية وتقوم بتطوير تصميم بحثي لسدّ الفجوة في المعرفة الثقافية للخصم. هذا التصميم المعرفي يحدد متطلبات المعرفة الضرورية للقائد العسكري حول التضاريس البشرية. والنقطة الثانية، هي جعل البيانات والمعلومات التي يتم جمعها على صلة عملياتية بالواقع العسكري، فمعلومات التضاريس البشرية يتم تحليلها وتنظيمها من قبل الفريق لتصبح مألوفة للعسكرية الأمريكية، وإلا ستكون بيانات لا قيمة لها. والنقطة الثالثة، تدور حول خلق الإطار الثقافي التحليلي للتخطيط واتخاذ القرار والتقييم العسكري، فالفريق لا يجب عليه فقط القيام بعمل بحثي وجعله قابلاً للاستخدام من قبل الوحدات العسكرية، بل يجب على فرق التضاريس البشرية أن يضمنوا إدماج البحوث في عمليات التخطيط العسكري بشكل مستمر.¹²¹

ما تقوله لنا هذه السرديات المستقاة من المصادر الأولية حول نشأة نظام التضاريس البشرية، بأن نشأته أتت استجابة لمتطلبات الواقع العملي في بيئة الحرب، وأن النظام وإن استثمر في خبرات علماء العلوم الاجتماعية المدنية إلا أنه يقع في صلب العمل العسكري وتحقيقاً لغاياته. فالهدف من القيام ببحوث في العلوم الاجتماعية لا يقتصر فقط على تحقيق ادعاء فهم السكان المحليين، بل يمتد إلى هندستهم اجتماعياً، في محاولة لنزع قدرة المجتمعات المحتلة على توليد مقاومة فعالة تجاه الاحتلال الأمريكي. وهو في ذلك شبيه في أهدافه بأهداف برنامج كاميلوت العسكري في دمج علماء العلوم الاجتماعية لأهداف مكافحة التمرد، وينطبق عليه النقد الذي وجه للبرنامج بأنه لا يدرس المجتمعات علمياً بهدف مساعدتها وحل مشكلاتها، بل لكبت مقاومتها واستئصال مقدرتها على المقاومة.

ولفهم نظام التضاريس البشرية بشكل أكثر تفصيلاً، لا بد من تناول ما تطرق إليه كُتَيْب فرق التضاريس البشرية من التنظيم الهيكلي للفرق، والمصادر التي يعتمد عليها في البحوث العلمية، والمنهجيات المستخدمة لإنجازها، لتعطينا فكرة أكثر وضوحاً عن ماهية عسكرة بحوث العلوم الاجتماعية. تتشكل فرق التضاريس البشرية من خمسة إلى تسعة أفراد، ويتكون في حدّه الأدنى من قائد للفريق وعالم في العلوم الاجتماعية ومدير للبحوث ومحللين للتضاريس البشرية. تشمل هذه الأدوار خبرات الإلمام باللغات المحلية في بيئة العمليات، وخبراء في المنطقة الجغرافية، وإنات تستطيع الوصول لقطاعات نسوية في بيئة العمليات الحساسة تجاه الأدوار الجندرية.

بالنسبة لقائد الفريق، فإنه يلعب دوراً باعتباره مستشاراً للوحدات العسكرية وقادتها، ويقع على مسؤوليته الإشراف على جهود الفريق لتلبية حاجات الوحدة العسكرية من خلال إدماج المعلومات في سلسلة اتخاذ القرار. ولموقعه الوسيط هذا، يجب أن يكون قائد الفريق من العسكريين القدامى أو النشطين لتسهيل التواصل ما بين فرق التضاريس

البشرية والوحدات العسكرية وقادتها، ليقوم بتقديم تقارير وثيقة الصلة بالتأثيرات الثقافية لبيئة العمليات، وتقييم التضاريس البشرية بناءً على تحديد مسارات الأعداء والأصدقاء في بيئة العمليات.

ويلعب علماء العلوم الاجتماعية دور المستشارين بكل ما يخص التضاريس البشرية، وخصوصاً الطرق البحثية لجمع المعلومات الضرورية. فوظيفتهم الأساسية هي إدارة البحوث الاجتماعية والإثنوغرافية، وربط تصاميم البحث مع تصاميم الحملات العسكرية. ومن الواجبات والمهام الملقاة على عاتقهم، مساعدة الفريق والوحدة العسكرية في رسم صورة مشتركة للعمليات العسكرية في اتصالها مع التضاريس البشرية. ويقومون بتحقيق ذلك من خلال الكشف عن الفرضيات التي تقوم عليها الثقافة في بيئة العمليات، واستخدام المعرفة الثقافية العملية لتجنيد الوحدات العسكرية من ممارسة سياسات خاطئة لتطبيقات القوة. كما ويقومون بإدارة الأبحاث الإثنوغرافية والمشاركة في التخطيط للعمليات العسكرية والمساهمة في تشكيل بروباجاندا من خلال تحديد الفجوات الثقافية في المعرفة للوحدات العسكرية في بيئة المعركة، وخصوصاً حول قيادات السكان المحليين وديموغرافية بيئة العمليات، والمكونات الاجتماعية والإثنية والدينية، باحثين عن تقييم لتصورات السكان المحليين حول القوات العسكرية وخصومها.

وفيما يتعلق بدور مدير البحوث في فرق التضاريس البشرية، فإن مسؤوليته الأساسية هي إدارة المعرفة وتتبع المعلومات ونشر منتجات فرق التضاريس البشرية المعرفية، وتطوير استراتيجيات البحث وتطويرها وتطبيقها، وتطوير تقنيات معالجة البيانات ومعاييرها. والوظيفة الأهم التي يقوم بها مدير البحوث هي أنه يعمل بشكل وثيق مع علماء العلوم الاجتماعية في تطوير وصياغة وتفسير وتطبيق التصاميم والاستراتيجيات البحثية للمهام العسكرية المعطاة، ومساهمته في تدفق المعلومات في الهيكل العسكري للجيش الأمريكي، إذ إنه يقوم بإدماج خطة التضاريس البشرية مع الوحدات

الاستخباراتية، وتحديد متطلبات التضاريس البشرية من معلومات ومعارف وتطويرها على صيغة ذات صلة ببيئة العمليات ومتطلباتها.

أما فيما يخص محلّ التضاريس البشرية، فإن هذا الدور منوط به باعتباره الخبير الثقافي والجغرافي واللغوي لمنطقة العمليات، ويساند علماء العلوم الاجتماعية في أبحاثهم من خلال توفير الوعي الظرفي لفرق التضاريس البشرية وفهم أعمق لكيفية تأثير الثقافة على فضاء المعركة. ويعمل محلّ التضاريس البشرية على البيانات والمعلومات المتأتية من المصادر المفتوحة، كالمقابلات والاستجابات والمشاركة في الدوريات العسكرية وحضور اللقاءات العسكرية، والمساهمة في تدريب العسكريين لتحقيق الحساسية الثقافية تجاه بيئة العمليات. فالمسؤولية الملقاة على عاتقه هي رفد الوحدات العسكرية بتفسيرات تساهم في أدوارها بمكافحة التمرد وبناء الأمة، وفتح قنوات اتصال مع السكان المحليين في محاولة لكسبهم لصالح القوات العسكرية.

ومع تلقّي فرق التضاريس البشرية مضمون المهمات العسكرية، يقع عليها تحديد جميع العناصر الحساسة للمهمة، وتزويدها بالتحليل الثقافي والتضاريس البشرية، والتي تتضمن نبذة عن السكان الذين يقطنون بيئة العمليات، وعلاقاتهم العشائرية والطائفية، وممارساتهم الدينية، والمكانة السوسيو-اقتصادية، وعلاقاتهم مع القوات الأمريكية. كل ذلك سيساهم في تحديد مسار العمليات العسكرية وتطويرها.¹²²

ولتحقيق ذلك، تعتمد فرق التضاريس البشرية على العديد من المصادر التي باستطاعتها تحقيق أفضلية لصالحهم من خلالها. وأول تلك المصادر البحث الميداني المرافق للدوريات العسكرية، ويتم ذلك من خلال الانخراط في التعامل مع السكان المحليين ومراقبة عاداتهم وتقاليدهم بشكل شخصي. ويعتبر هذا النوع من المصادر لا غنى عنه لجمع البيانات الدقيقة، إذ إن هنالك معلومات يمكن جمعها فقط عن طريق التفاعل ما

بين أعضاء فرق التضاريس البشرية والسكان المحليين. وأما المصدر الثاني فيتمحور حول تقارير الوحدات العسكرية، فهي تقوم بتوليد عدد من التقارير التي توضح النشاطات كافة المرتبطة بالعمليات العسكرية، كتقارير الاستخبارات العسكرية والتقارير المرتبطة بالوضع الميداني. والمصدر الثالث هو التقارير الإعلامية وملخصاتها التي تزود فرق التضاريس البشرية بالمعلومات في وقت قصير نسبياً. والمصدر الرابع مستمد من تقارير المنظمات، كمنظمات الأبحاث ومراكز البحوث ومنظمات المجتمع المدني، والاجتماع مع الوكالات الحكومية المختلفة، إذ تساهم هذه الاجتماعات في تحديد الإطار التحليلي الثقافي لبيئة العمليات من خلال المعلومات المتوفرة التي تحسّن من الوعي الظرفي. أما المصدر الخامس، فهي الأدبيات الأكاديمية والتي يقوم علماء العلوم الاجتماعية بالوصول إليها، والتي توفر تقييمات عملية وتحليلات يتم تزويدها من قبل أكاديميين مختصين، تلقي الضوء على السياق التاريخي لبيئة العمليات وتساهم في بناء عمل بحثي طويل الأمد. والمصدر السادس يتمحور حول استخلاص المعلومات من خلال المقابلات مع أعضاء الوحدات العسكرية والمخبرين المحليين.¹²³

هنا يأتي دور المنهجية وتصميم الأبحاث، إذ ينظر الكتيّب إلى عملية البحوث كحرفة وصنعة تحتاج الممارسة الدورية لإتقانها، والهدف من وراء التحضير الثقافي لبيئة العمليات منهجياً هو جني فهم للبيئة الثقافية التي بدورها سترزود الفاعلين بالنصائح حول التعامل والتفاعل مع السكان المحليين، إلى جانب تحديد مسارات الفعل العسكري وتوقع أفعال الخصم العسكرية وغير العسكرية. وتتكون عملية البحث من أربع نقاط: أولها تحديد التضاريس الفيزيائية البشرية، ومن ثم وصف الاعتبارات المدنية وتحديد الأنماط الاجتماعية والسياسية في بيئة العمليات، إلى جانب تحديد نقاط الاحتكاك وسوء الفهم المتعلق بالبيئة. وبناء عليه، فإن نشاطات فرق التضاريس البشرية ستكون مقودة بتصاميم بحثية إثنوغرافية، كما هو الحال بمخططات البحث، والتي تقوم على إشكالية بحثية مصاغة على شكل أطروحة. والإشكاليات ذاتها أيضاً تشير إلى نظرية اجتماعية

محددة، تقوم بفحص بناء افتراضات تمكّن الباحث من فحص قوتها التفسيرية. والبيانات والمعلومات التي تنتج عن التصاميم البحثية ستستخدم في إثبات الفرضيات أو دحضها، وإظهار صلاحية الأطروحة التي بدورها تؤكد على شمولية النظرية الاجتماعية كطريقة لفهم العالم الاجتماعي. والهدف الأساسي التي تطمح إليه هذه العملية، الإجابة عن الأسئلة التالية، ما هي أهداف الوحدة العسكرية؟ ما الذي تريد فهمه أو معرفته؟ وما هي التأثيرات التي تبتغي تحقيقها؟¹²⁴

ونتيجة لارتباط مخرجات العمل البحثي بالعمليات العسكرية ومتطلباتها، والاختلاف الحاصل ما بين الخبرات الأكاديمية والعسكرية، كان يجب عقد نوع من التسوية في عملية البحث ما بين الوضوح الذي يعتبر أساسياً للتخطيط العملياتي في بيئة صراع معقدة كما هو الحال في العراق، وما بين رفق التحليل بالتفصيلات اللامتناهية من جهة أخرى. فهذا الانشطار يتجلى بشكل أكثر وضوحاً في جعل بحوث العلوم الاجتماعية على صلة بالمستوى التكتيكي. فالتفاصيل الإضافية المتعلقة بأحد أوجه دراسة السكان المحليين يمكن لها أن تولّد صورة مربكة حول السكان بكليّتهم، إذ تجعل مما هو غير متجانس، متجانساً. ويعود ذلك إلى أن فرق التضاريس البشرية تنحو منحى التركيز على التفاعلات والمتغيرات عند اشتباكهم مع المستوى الشعبي، بينما العسكرية الأمريكية تسعى وتبحث عن التماثل والتماسك من أجل الفهم والتنفيذ.

هذا التماثل والتماسك يتطلّب تغليف المعرفة المنتجة من العلوم الاجتماعية وإخراجها على شاكلة معرفة يمكن فهمها وتحويلها إلى فعل عسكري عملياتي على أرض الواقع. كما يتطلّب أطراً لتشخيص بيئة العمليات، مثل البنيوية الوظيفية، فإذا ما كان هذا البناء النظري يعبر عن تقليعة فكرية في خمسينيات القرن العشرين، فإنه بالنسبة لنظام التضاريس البشرية بالغ الضرورة والأهمية لما ينطوي عليه من نمذجة المجتمع كعناصر وأعضاء تكافلية والتي في إجمالها تشير إلى بنية واحدة. في هذا

السياق، تم توظيف أنموذج عالم الاجتماع الأمريكي تالكوت بارسونز الذي اعتبر أن الثقافة والتقاليد والمؤسسات هي أعضاء داخل الجسد الاجتماعي، وأن وظيفة كل منها تؤثر على قابلية الحياة للكُل. هذا الميل إلى التجسيد الاجتماعي من قبل النظرية كان مثيراً للاهتمام بالنسبة للمشروع العسكري في نمذجة حالات التمرد. فبناءً على الصلة بعقيدة مكافحة التمرد، فإن البنيوية الوظيفية أعطت أفضلية لدور الثقافة في تشكيل الصرح الاجتماعي بما يحويه من قيم وأعراف وأفكار ومعتقدات متصلة ببعضها البعض، وأن الثقافة هي قوة الربط. كما أنه يمكن النظر إلى البنيوية الوظيفية على أنها نقطة انطلاق للاشتباك العسكري مع الخبرات السوسيو-ثقافية، فهذا النموذج النظري قد خدم كمنصة للعسكرية الأمريكية للتحرك قدماً نحو تصور التضاريس البشرية، ووضّح الآمال العسكرية الأمريكية لنمذجة طبيعة الحرب في بيئات معقدة.

ولجسر الهوة بين النظرية والممارسة، هناك حاجة لنوع من التسوية، مثل توظيف البنيوية الوظيفية لنمذجة وفهم البيئة البشرية في فضاءات معقدة ومتنازع عليها. فكما تشرح مكفيت، فإن البنيوية الوظيفية "قائمة على النظر إلى المجتمع كوحدة شاملة مترابطة العناصر المكونة لها، مما سيخدم باعتباره نموذجاً إرشادياً قادراً على جعل البيئة قابلة للتفسير عسكرياً من قبل القادة العسكريين. من هنا، فعلماء العلوم الاجتماعية المتموضعين في الوحدات العسكرية اعتبروا المحاولة الأولى لجسر الهوة بين الأكاديميا والعسكرية الأمريكيين، وباعتبارهم فاعلين في بيئة عمليات ذات إيقاع مرتفع. ولتحقيق التواصل ما بين العسكري والأكاديمي، فإن نظام التضاريس البشرية قد أعطى البيئة العملية سمة البنيوية الوظيفية، حيث اعتبرت العدسة التي يحدق من خلال العسكريين لهذه البيئة."¹²⁵

وكما أن الفرق ما بين النظرية والممارسة في واقع الصراع، يحدُّ من طبيعة العمل الأكاديمي، فالتوجه الأكاديمي للبحث من أجل المعرفة بدلاً من الغايات العملية

احتاج إلى تقليص. والمنتجات النهائية لأبحاث علماء العلوم الاجتماعية كان يجب أن يتم تقديمها بصورة موجزة حتى تجد طريقها للاندماج في عملية اتخاذ القرارات العسكرية. كما أن ميول الأكاديميين لتوظيف بيانات معقدة وإخراجها بصورة معقدة قد تم إقصاؤه، إذ قام نظام التضاريس البشرية بتعديل طرقة من خلال أخذ البيانات السوسيو-ثقافية المعقدة وتفسيرها إلى أشكال من المعلومات الاستخباراتية. ففرق التضاريس البشرية التي جاءت لجسر الهوة في المعرفة السوسيو-ثقافية كان عليها التأقلم مع المتطلبات العسكرية من حيث تحسين اللغة والمضمون.

ويقول عالم في العلوم الاجتماعية مشارك في أحد فرق التضاريس البشرية عن التسوية بين الوضوح من جهة، ورفد البحث بالتفاصيل من جهة أخرى، بأنه "طالما سعينا إلى أن تكون الأبحاث قابلة للقراءة من وجهة نظر القائد العسكري، إذ كان بإمكانك إعطاء تفاصيل إضافية لجعل البحوث أقوى وأكثر عمقاً، ولكنك لا تستطيع فعل ذلك لأنك تريد أن تجعلها مقروءة." كما يروي أحد العاملين في فرق التضاريس البشرية بأن ما احتاجته القيادة العسكرية هو بحوث وتقارير موجزة تتوافق مع توجهاتها، والتي كانت في أغلبها تقود إلى الاستهداف العنيف للسكان"، ما قاد أحد الباحثين للخروج بخلاصة مفادها "هذا الانشطار الذي يعطي أفضلية للوضوح والفهم على حساب التفاصيل، يمكن له أن يعرض حياة السكان للخطر."¹²⁶

هذه الفكرة الأخيرة، تقودنا إلى القضية الأخيرة لهذا الفصل، والتي تتمحور حول الانتقال من عنف الحداثة الإبستمي إلى عنفها الفيزيائي فيما يتعلق ببرنامج نظام التضاريس البشرية. فالبرنامج منذ بداية عمله قد حاز على حملة للعلاقات العامة تروّج بأنه جاء لإنقاذ حياة الناس، سواء أكانوا عراقيين أم أفغانيين أم أمريكيين. ورافق هذه الحملة إيمان من قبل أعضاء فرق التضاريس البشرية بأن البرنامج مكّن العسكرية الأمريكية من القيام بعمليات تقلل من حجم الاستهداف المميت

والقتل، فمثلاً قال عضو في إحدى الفرق بأن وظيفته هي "عرض ما يريده السكان المحليون وما يتوقعونه، والترويج للخيار العسكري غير العنيف في التعامل معهم". ويقول قائد عسكري كان مسؤولاً عن إحدى فرق التضاريس البشرية، بأن "مجهود فرق التضاريس البشرية ساهم في تقليل النشاطات العنيفة والمميتة تجاه القوات الأمريكية، وخصوصاً العبوات الناسفة، نظراً لما قدموه من معرفة بالتقاليد المحلية ومراكز القوة في المجتمع، مما ساهم في تغيير الوضع التكتيكي لبيئة العمليات". وقائد عسكري آخر أشار إلى التأثير الإيجابي لفرق التضاريس البشرية، إذ قال بأنها ساهمت في "تحقيق المهمات العسكرية العملية بصورة أفضل، فالمشاكل التي كنا نحلّها بصورة عنيفة أضحت هنالك أساليب أخرى للتعامل معها بشكل غير عنيف، وذلك نتيجة المعلومات التي قدمتها فرق التضاريس البشرية."¹²⁷

ومن أبرز الشهادات في السياق ذاته ما قدمه الكولونيل الأمريكي مارتن شويتزر في شهادته أمام الكونغرس، والذي يتمّ اقتباسه مراراً حول الادعاء بتقليل العمليات العسكرية العنيفة نتيجة نظام التضاريس البشرية، يقول فيه "إن تأثير نظام التضاريس البشرية قوي بأضعاف مضاعفة مما يبدو عليه، فقد قلل عملياتنا العنيفة، وساهم في تطوير مسارات للفعل العسكري أقل عنفاً، فدون فرق التضاريس البشرية لم يكن بالإمكان تحقيق ذلك، وسنكون قد خسرنا أضعاف الأرواح التي نخسرها". وأرجع الكولونيل تقليص العمليات العنيفة بنسبة 60٪ إلى دور فرق التضاريس البشرية في المهمات العسكرية.

وخلال مقابلات الباحث بول جوزيف مع أعضاء فرق التضاريس البشرية، والتي أشار فيها إلى شهادة الكولونيل الأمريكي مارتن أمام الكونغرس، كانت ردة فعل أكثرهم حولها بأن التأثير المتوخّى من المعلومات الثقافية على نسبة الخسائر، كان صعب القياس، ولكنهم اتفقوا على أن البرنامج مارس تأثيراً معتدلاً على العسكرية الأمريكية. فمثلاً عالم في العلوم الاجتماعية في العراق قال بحسب تقديره للأمور، بأن "قياس تأثير فرق التضاريس البشرية

على العمليات العنيفة مستحيل قياسه، ولكن لديّ إحساس عام بأنه ساهم في تقليل العنف، ولكن كيف لك أن تعرف أنك منعت شيئاً لم يكن ليحصل أساساً؟¹²⁸

لكن كولونيل أمريكي قام بالرد على هذه الادّعاءات بقوله "لا تخدع نفسك، فرق التضاريس البشرية سواءً اعترفوا بذلك أم لا، فإنهم يساهمون بتكوين معرفة كلية للقائد حول البيئة العملية والتي تمكّنه من تمييز الصديق والعدو، وبالتالي تقوده إلى استهداف وقتل العدو... وإنكار هذه الحقيقة هو إنكار لواقع الحرب في كل من العراق وأفغانستان.¹²⁹" وهو ما يؤكّده قائد عسكري أمريكي آخر إذ قال إن "نظام التضاريس البشرية لم يقلل من العمليات العسكرية العنيفة تجاه السكان المحليين، ولكنه ساهم في تطبيقها بشكل تمييزي وواعٍ وفعال أكثر.¹³⁰" كما وقام الأنثروبولوجي الأمريكي ديفيد برايس باستخدام قانون حرية المعلومات الأمريكي بمساعدة ادعاء الكولونيل مارتن شويتزر حول تناقص عمليات الاستهداف العسكرية العنيفة نتيجة نظام التضاريس البشرية، حيث اعترف الجيش الأمريكي بأنه لا يوجد لديه دليل على هذا الادّعاء.¹³¹

في حين أن الأنثروبولوجي الأمريكي روبرتو غوانزاليس المعارض لنظام التضاريس البشرية قال بأن النظام يتشارك شبيهاً واضحاً مع البرامج سيئة السمعة التي طبقت في فيتنام كـ "كوردس"، وخصوصاً إحصاء المظالم التي كان علماء العلوم الاجتماعية يجمعونها إلى جانب بيانات إثنوغرافية مستقاة من مقابلات مع السكان المحليين حول حاجاتهم ومشاعرهم تجاه المتمردين، والتي أدت في نهاية المطاف إلى اعتقال وتعذيب وقتل ما لا يقل عن 35 ألفاً من المدنيين الداعمين للمتمردين.¹³² أما في السياق العراقي لا نملك إحصائيات حول دور برنامج التضاريس البشرية في إلحاق الأذى بالعراقيين، ولكن مما لا شكّ فيه أن دوره تجاوز العنف الإبستمي ليصل إلى حدّ الاستهداف الممنهج للمقاومة العراقية وحاضنتها الشعبية تحت مسمى مكافحة التمرد.

8. خاتمة: نظام التضاريس البشرية، لماذا؟

في معرض ما يشبه تبرير ربط الحداثة بدراسة حقول معرفية كالاستشراق، يقول وائل حلاق "في التعامل مع الاستشراق، أزعّم أنه ينبغي أن نبدأ من البنية والنظام اللذين أنتجا الاستشراق واستوعباه، وأن ننتهي بهما. يعني هذا أن الذات الحداثيّة وتركيبها، بوصفها العامل المحدد لشكل الأبنيّة الحداثيّة، يجب أن تكون في صلب تحليلنا. فالاستشراق، كأيّ حقل خطابي أكاديمي آخر، هو فرع لأصل، وما هو فرعي يجب أن يكون له، بحكم التعريف، أصل يتفرع منه." ويضيف أيضاً، أن "إبداع آلة أو أداة أو طريقة ليست عملية محايدة أبداً... بل هو كشف لبنية الفكر التي تؤسس سلسلة معرفية بين الشيء وصفته أو بين الأداة ومخترعها."¹³³

هذا الأمر ينطبق تماماً على دراستنا للغزو الأمريكي للعراق وتخليق أداة نظام التضاريس البشرية، فهي فرع من أصل، ألا وهو الالتقاء الاستعماري الحداثي ما بين المستعمر والمستعمر، إذ لا تنحصر عملية اشتباك الحداثة مع الآخر في المواقف الفكرية، ما بين القبول أو الرفض أو المواءمة بين ثنائية الحداثة-الأصالة، بل تمتد إلى ما يتغيه الحداثة وسلوكها التقليدي المتمثّل في إحكام السيطرة والقيام بهندسة اجتماعية مستندة فيها إلى العلم والتقنيات الحداثيّة كما هو حال نظام التضاريس البشرية. من هنا، فبعض القضايا الفكرية المتعلقة بسؤال من نحن، لا تجد لها إجابة في عالم الفكر، بل في عالم الحرب وساحة المعركة.

ولمواجهة بحث الحداثة المحموم عن السيطرة، قامت بتخليق أداة كانت أولى اهتماماتها تحويل المجتمع العراقي إلى تضاريس بشرية يتم غزوها واستعمارها والتلاعب فيها، لغاية البحث عن القائمين ومن يقف وراء العبوات النافسة التي تستهدف القوات الأمريكية لتفادي الإصابات القاتلة بها. ولتحقيق ذلك، قامت بتشريح المجتمع العراقي في بيئة

العمليات العسكرية، ضمن مستويات وتصنيفات متعددة: أولها، المؤسسات العراقية الحالية في حينها، وتقييم بُنيته ووظيفتها وتأثيرها الثقافي والاجتماعي، وسواءً أكانت تلك المؤسسات حكومية أم اقتصادية أم أمنية أم قضائية. وثانيها، تقييم المؤسسات التاريخية التي لم يعد لها وجود على أرض الواقع، واستخلاص شعور ومواقف السكان المحليين تجاهها. وثالثها، تقييم فضاءات التأثير، بمعنى تحديد الأفراد المؤثرين في مجتمعاتهم وشبكاتهم الاجتماعية ومصدر تأثيرهم، وكيفية استفادة الوحدات العسكرية من تحصيل تأييدهم. والتصنيف الرابع يتضمن فحص وتقييم العوامل الخارجية المؤثرة في السكان المحليين، كالأجسام الدينية الأجنبية والدول المحيطة بهم. والتصنيف الخامس يقوم بفحص وتقييم التكوين الديموغرافي للسكان المحليين بما يشمل نسبة التعليم والتوظيف والعرق والإعمار والجنس والمكانة السوسيو-اقتصادية. أما التصنيف السادس والأخير يتضمن فحص وتقييم التسلسل الهرمي للبنى الاجتماعية كالتحالفات العشائرية والقبلية، إلى جانب إعطاء تقييم شامل للمنطقة المحددة كبيئة للعمليات، والتي تتراوح ما بين الحي والمقاطعة، وما تشمله من بنى تحتية وعوامل دينية كالمعتقدات والهويات والبنى والمنظمات والعقائد.

هذا التشريح التفصيلي للمجتمع العراقي بمستوياته وتصنيفاته المختلفة كان هدفه إقامة وعقد مصالحتات وتفاهمات بين السكان المحليين والقوات العسكرية الأمريكية، بهدف كسب تأييدهم ودعمهم للعمليات العسكرية، وذلك من خلال استطلاع العلاقات بين البنى العشائرية والدينية والثقافة المحلية، وجلبها إلى طاولة المفاوضات. ويعتمد هذا كله على جمع البيانات والمعلومات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في بيئة العمليات، وخصوصاً على مستوى الأحياء، والتي تتمُّ دراستها من زاوية الكثافة السكانية وحجم العائلة ومستويات التعليم والارتباطات العشائرية والهويات الطائفية، إذ يتمُّ رسم خريطة للشبكات الاجتماعية وصورة عامة عنها تشمل المؤسسات كالمساجد

ودورها، والجمعيات النسوية والمنظمات غير الحكومية العاملة فيها وعلاقات الأفراد بتلك المؤسسات. وإلى جانب المستويين الديمغرافي والمؤسسي، هنالك مستوى متعلق بمدارك السكان المحليين ومواقفهم تجاه القضايا العامة. وعلى المستوى الاقتصادي، فإنه يبحث عن تمثيلات المؤسسات الاقتصادية وتدفع المال على مستوى الحي. أما المستوى الأخير فهو العمل على صنع بروباجاندا تستهدف مشاعر السكان المحليين وهندستها إيجابياً تجاه القوات العسكرية.¹³⁴

ولعل المثال الأبرز الذي يُضرب على فعالية تشريح المجتمع العراقي بمستوياته المختلفة، والانعطاف الثقافية العراقية العسكرية الأمريكية وما رافقها من تخليق نظام التضاريس البشرية هو نشوء الصحوات العراقية، والتي حاربت جنباً إلى جنب مع القوات الأمريكية لمواجهة تهديد القاعدة في العراق. ولكن يخبرنا الباحث كريستيان تريبودي نقلاً عن الضابط الأمريكي المسؤول عن فتح باب الحوار مع العشائر العراقية، بأنه افترق حقيقةً لدوافع العشائر وراء تشكيل الصحوات، إذ قال إن أساس الفكرة كانت من شيوخ العشائر، وكان الضابط متماشياً معها فقط. ويفسر الباحث الأمر بقوله إنه منذ بداية الاحتلال الأمريكي للعراق كان سلوك العشائر يتشكل بناءً على مصلحتها الذاتية، فبعضهم تحالف مع المقاومة السنية، وبعضهم الآخر تحالف مع القوات الأمريكية، وآخرون تحالفوا مع الجهاديين الذين شكلوا تنظيم القاعدة في العراق. ولذلك من المستبعد بشكل كبير أن الطرق العسكرية المتمركزة حول السكان هي التي أفضت إلى ظهور الصحوات. بل ويضيف الباحث أن الأمر كان على العكس من ذلك تماماً، بمعنى أن الطرق المتمركزة حول السكان كانت في حقيقة الأمر طرفاً متمركزة حول النخبة، إذ قامت بتقليد الطرق الإمبريالية للحكم غير المباشر، والتي أفضت إلى إهمال السكان المحليين لصالح عدد قليل من الأفراد الذين يمتلكون السلطة، وبذلك شكّلت الأطروحة النقيضة للعمليات المتمركزة حول السكان.¹³⁵

لكن يمكن أن نطلق على هذه المصلحة الذاتية التي سعت وراءها العشائر بتقنيات البقاء والمقاومة بالحيلة التي انتهجها المجتمع العراقي لمواجهة الغزو الأمريكي وخلخلته للبنى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للمجتمع العراقي. فالغزو كحدث عنيف عمل على تقطيع أوصال ما هو طبيعي ومعتاد، وتحويل حالة الطوارئ إلى حالة دائمة، تبلورت فيها ومن خلالها المقاومة العراقية كأحداث متواترة لمواجهة القوات الأمريكية وحلفائها.

وعلى الرغم من محاولات الاحتلال الأمريكي نزع السحر عن الحرب العراقية، إلا أنه قد تبددت أوهام السيطرة، وثبت بالوقائع فشل مجهودها في ذلك، فلم تستطع رغم جهود تشريحها للمجتمع العراقي السيطرة على الآليات والبنى المولدة للمقاومة العراقية. كما أن المقاومة مارست حرباً تنفي فيها أفضلية الولايات المتحدة الأمريكية العسكرية، فالعبوات الناسفة انتشرت إلى الحد الذي أصبحت فيه الاختيار المفضل من الأسلحة لمواجهة القوات الأمريكية. والتحديات التي فرضتها العبوات الناسفة تقع في عدة نقاط: أولاً، أنها لا تتطلب مواجهة فيزيائية بين القوى المتحاربة. وثانياً، من الصعب تحديدها أو مكافحتها مع التقنيات المتوفرة، حيث إن طبيعة العبوات الناسفة المرتجلة والتي يمكن لصانعيها تحديثها لتجاوز التدابير الدفاعية اتجاهها. وثالثاً، أنها تمنع تحقيق الأمن على الأرض وبالتالي تعيق جهود إعادة الإعمار. ورابعاً، لا تتطلب العبوات الناسفة معدات عسكرية إذ يتم تركيبها من معدات مدنية، ولذلك فالعبوات الناسفة كسلاح يمكن أن تحقق تأثيراً استراتيجياً من خلال تحقيق أهداف التمرد بممارسة تأثير عام على التصور والرأي العام حول الصراع.¹³⁶

وبذلك، فقد مارست المقاومة العراقية مقاومة تدخل ضمن منطق علم اللامتوقع الذي تحدث عنه جايمس غليك في كتابه **نظرية الفوضى وعلم اللامتوقع**، وإشارته المحددة إلى أثر جناح الفراشة والأغنية الأمريكية الفولوكلورية التي قالت: "بسبب مسمار سقطت حدوة حصان... وبسبب حدوة، تعثر حصان... وبسبب حصان، سقط فارس... وبسبب

فارس، خُسرَت معركة... وبسبب معركة، فُقدت مملكة. "ولا يوجد دليل على ذلك سوى اندحار الجيش الأمريكي من العراق، رغم حالة التشظي الذي مازال يعيشه المجتمع العراقي من أثر الاحتلال.¹³⁷

رغم ذلك، وختاماً، نردد ما ردّده هاني الراهب في روايته **خضراء كالبحار**، تأكيداً على فرضية تروتسكي بأن الحرب قاطرة التاريخ: "قبل عام ونيّف قالوا إن الحرب انتهت. وكانوا يقصدون المدافع والدبابات، والجنود المدجّجين بتكنولوجيا القتل. بالنسبة لفراس فإن الحرب لم تنتهِ. الحرب مثل أمواج البحر، لا تنتهي. أنت تعيش بين الناس في حالة حرب. وأنت وهم في حالة حرب مع أناس آخرين. الحياة نفسها حالة حرب. ولكن من هذه الحالة يولد الحب والفن، وتولد الإنسانية."¹³⁸

الإحالات

- [1] عبد الوهاب المسيري، دراسات معرفية في الحداثة الغربية (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2006)، 90.
- [2] وائل حلاق، الدولة المستحيلة: الإسلام والسياسة ومآزق الحداثة الأخلاقي، ترجمة عمرو عثمان (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014، ط1)، 149.
- [3] Christian Tripodi, *The Unknown Enemy: Counterinsurgency and the Illusion of Control* (Cambridge: Cambridge University Press, 2021), 140.
- [4] David H. Ucko, *The New Counterinsurgency Era: Transforming the U.S Military for Modern Wars* (Washington D.C: Georgetown University Press, 2009), 59; Benjamin Buley, *The New American Way of War: Military Culture and the Political Utility of Force* (London & New York: Routledge Taylor & Francis Group, 2008), 145; Christian Tripodi, "The Unknown Enemy", op.cit., X, 23; Bruce R. Pirnie and Edward O'Connell, *Counterinsurgency in Iraq (2003-2006)* (California: RAND National Defense Research Institute, 2008), 75.
- [5] Grants S. Fawcett, "Cultural Understanding in Counterinsurgency: Analysis of the Human Terrain System". Monograph, *School of Advanced Military Studies, United States Army Command and General Staff College* (2009): 1, 9, 22.
- [6] Roberts Scales, "Army Transformation: Implications for the Future," The House Armed Service Committee, 15 of July 2004; Scales, "Clausewitz and World War IV", 2006. Retrieved from <http://armedforcesjournal.com/clausewitz-and-world-war-iv/>
- [7] David H. Petraeus, "Learning Counterinsurgency: Observations from Soldiering in Iraq," *Military Review* (2006): 2, 8.
- [8] Michael R. Melillo, "Outfitting a Big-War Military with Small-War Capabilities," *Parameters*, Vol. 36, No. 3 (2006): 24, 26.
- [9] Montgomery Mcfate, "The Military Utility of Understanding Adversary Culture", *JFQ*, No. 38 (2005a): 44.
- [10] Grants S. Fawcett, "Cultural Understanding," op.cit., 1, 25; Montgomery Mcfate, "The Military

Utility of Understanding Adversary Culture”, *JFQ*, No. 38 (2005a): 43-44; Montgomery Mcfate, “Anthropology and Counterinsurgency: The Strange Story of Their Curious Relationship,” *Military Review* (2005c): 24; Rochelle Davis, “Culture as a Weapon System,” *Middle East Report*, No. 255 (2010): 8; Derek Gregory, “‘The Rush to the intimate’: Counterinsurgency and the cultural turn in late modern war,” *Geographical imagination blog* (2008): 5.

[11] Thomas Waldman, “‘Shadows of Uncertainty’: Clausewitz’s Timeless Analysis of Chance in War,” *Defense Studies*, Vol. 10, No. 3 (2010): 337.

[12] Alan Beyerchen, “Clausewitz, Nonlinearity, and the Unpredictability of War,” *International Security*, Vol. 17, No. 3 (1992-1993): 61.

[13] Thomas Waldman, “War, Clausewitz, and the Trinity” (PhD diss., University of Warwick, 2009), 258.

[14] Katherine L. Herbig, “Chance and Uncertainty in On War,” *Journal of Strategic Studies*, Vol. 9, No. 2-3 (1986): 96.

[15] Thomas Waldman, “Shadows of Uncertainty,” op.cit., 343-344, 345-346, 360; Thomas Waldman, “War, Clausewitz, and the Trinity,” op.cit., 230-233-234, 232-; Katherine L. Herbig, “Chance and Uncertainty in On War,” op.cit., 104.

[16] Thomas Waldman, “Shadows of Uncertainty,” op.cit., 336-337, 338-339, 340, 344; Katherine L. Herbig, “Chance and Uncertainty in On War,” op.cit., 98.

[17] Thomas Waldman (2009), *Ibid.*, 236.

[18] Thomas Waldman (2009), *Ibid.*, 236.

[19] Thomas Waldman (2010), *Ibid.*, 336, 337, 340, 346, 353.

[20] Thomas Waldman (2009), *Ibid.*, 230.

[21] Thomas Waldman (2010), *Ibid.*, 336, 338-339.

[22] *Ibid.*, 340.

[23] *Ibid.*, 341.

- [24] Thomas Waldman (2009), *Ibid.*, 261, 270; Thomas Waldman (2010), *Ibid.*, 339, 340, 341.,342 347; Katherine L. Herbig (1986), *Ibid.*, 98, 100, 101-102; Lukas Milevski, "The Idea of Genius in Clausewitz and Sun Tzu," *Comparative Strategy*, Vol. 38, No. 2 (2019): 140-141.
- [25] Thomas Waldman (2010), *Ibid.*, 342-343, 353; Thomas Waldman (2009), *Ibid.*, 252, 253, 254; Katherine L. Herbig (1986), *Ibid.*, 104; Alan Beyerchen (1992-93), *Ibid.*, 75; Terence M. Holmes, "Planning versus Chaos in Clausewitz's on War," *Journal of Strategic Studies*, Vol. 30, No. 1 (2007): 132.
- [26] Terence M. Holmes (2007), *Ibid* 139, 143.
- [27] Thomas Waldman (2010), *Ibid.*, 348, 349, 350-351; Thomas Waldman (2009), *Ibid.*, 241.
- [28] Steven Metz, "Learning from Iraq: Counterinsurgency in American Strategy," *Strategic Studies Institute in U.S Army War College*, 2007: 1-2, 5; David H. Ucko, *The New Counterinsurgency Era: Transforming the U.S Military for Modern Wars* (Washington D.C: Georgetown University Press, 2009), 59; William Patterson, *Democratic Counterinsurgents: How Democracies Can Prevail in Irregular Warfare* (London: Palgrave Macmillan, 2016), 122-123.
- [29] David H. Petraeus, "Reflections on the Counter-Insurgency Era", *The RUSI Journal*, Vol. 158, No. 4 (2013): 82.
- [30] Christian Tripodi (2021), *Ibid.*, 13.
- [31] Brian Burton and John Nagl, "Learning as we go: The U.S Army adapts to Counterinsurgency in Iraq, July 2004-December 2006," *Small Wars & Insurgencies*, Vol. 19, No. 3 (2008): 304.
- [32] William Patterson (2016), *Ibid.*, 121, 122-123; Brian Burton and John Nagl (2008), *Ibid.*, 304-305, 307-308; David H. Ucko (2009), *Ibid.*, 71, 96-97; Steven Metz (2007), *Ibid.*, 5; Christian Tripodi (2021), *Ibid.*, 23; Rochelle W. Hill, "Re-inventing Counterinsurgency Doctrine: Why the United States Failed in Iraq and Afghanistan" (Master Thesis, National Defense University, 2016), 19; James S. Corum, "Rethinking US Army Counter-insurgency Doctrine," *Contemporary Security Policy*, Vol. 28, No. 1 (2007): 128.
- [33] Jeffrey Record, "The American Way of War: Cultural Barriers to Successful Counterinsurgency," *Cato Institute*, No. 577 of Policy Analysis (2006): 10.
- [34] Michael R. Melillo, "Outfitting a Big-War Military with Small-War Capabilities," *Parameters*, Vol.

36, No. 3 (2006): 23.

[35] William Patterson (2016), *Ibid.*, 121.

[36] David Kilcullen, *The Accidental Guerilla: Fighting Small Wars in the Midst of a Big One* (New York: Oxford University Press, 2009), 24-25.

[37] Christian Tripodi (2021), *Ibid.*, 22-23; Don Neill, "The Graduate Level of War": Continuity and Change in U.S Counter-Insurgency Strategy," *Defense R&D Canada Center for Operational Research & Analysis* (2008): 22; Brian Burton and John Nagl (2008), *Ibid.*, 303; Steven Metz (2007), *Ibid.*, 16; Benjamin Buley (2008), *Ibid.*, 3, 86.

[38] Thomas Waldman (2009), *Ibid.*, 245-246; James S. Corum (2007), *Ibid.*, 129-130; Benjamin Buley (2008), *Ibid.*, 85, 86-87.

[39] James S. Corum (2007), *Ibid.*, 127; James A. Russell, "Counterinsurgency American Style: Considering David Petraeus and twenty-first century irregular war," *Small Wars & Insurgencies*, Vol. 25, No. 1 (2014): 71-72; Maria Ryan, "Full spectrum dominance: Donald Rumsfeld, the Department of Defense, and US irregular warfare strategy, 2001-2008," *Small Wars & Insurgencies*, Vol. 25, No. 1 (2014): 42-43; Benjamin Buley (2008), *Ibid.*, 4, 127-128, 145.

[40] Christian Tripodi (2021), *Ibid.*, 1, 65, 141; Bruce R. Pirnie and Edward O'Connell (2008), *Ibid.*, 70; William Patterson (2016), *Ibid.*, 121, 123; James A. Russell (2014), *Ibid.*, 71-74; Patricia Owens, "From Bismarck to Petraeus: The question of the social and the social question in counterinsurgency," *European Journal of International Relations*, Vol. 19, No. 1 (2013): 140; Sharad V. Oberoi, "Population-centric Counterinsurgency as Seen Through the Iraq War Logs: A Preliminary Evaluation" (Master Thesis, University of Chicago, 2011), 8-10; Brian Burton and John Nagl (2008), *Ibid.*, 308, 322; Don Neill (2008), *Ibid.*, 31; Gian Gentile, "A Strategy of Tactics: Population-centric COIN and the Army," *Parameters*, Vol. 39, No. 3 (2009): 5; Celeste Ward Gventer, "Keep the change: Counterinsurgency, Iraq, and historical understanding," *Small Wars & Insurgencies*, Vol. 25, No. 1 (2014): 250.

[41] Barak A. Salmoni and Paula Holmes-Eber, *Operational Culture for the Warfighter: Principles and Applications* (Virginia: Marine Corps University Press, 2008), 3.

[42] Christian Tripodi (2021), *Ibid.*, 32; Marina Miron, "On Irregular Wars, Insurgencies and How to

Counter Them: Enemy and Population-Centric Approaches in Comparative Perspective,” *Revista Científica General Jose Maria Cordova*, Vol. 17, No. 27 (2019): 459, 467-468; Johnharry Heuer Perez, “Applying Enemy and Population Centric Strategies to Counterinsurgency Efforts,” (Master Thesis, Texas A&M University, 2018), 1; Lydia Walker, “Forging a Key, Turning a Lock: Counterinsurgency Theory in Iraq 2006-2008,” *Studies in Conflict & Terrorism*, Vol. 32, No. 10 (2009): 911; Thomas Rid, “The Nineteenth Century Origins of Counterinsurgency Doctrine,” *The Journal of Strategic Studies*, Vol. 33, No. 5 (2010): 728-731.

[43] Thomas Rid (2010), *Ibid.*, 740.

[44] Ian F. W. Beckett, *Modern Insurgencies and Counterinsurgencies: Guerrillas and their Opponents since 1750* (London & New York: Routledge, 2001), 40.

[45] Thomas Rid (2010), *Ibid.*, 729, 756.

[46] Marina Miron (2019), *Ibid.*, 461, 463-464, 469-470; Christopher Paul, Colin P. Clarke and others, “Moving Beyond Population-Centric vs. Enemy-Centric Counterinsurgency,” *Small Wars & Insurgencies*, Vol. 27, No. 6 (2016): 1022; Johnharry Heuer Perez (2018), *Ibid.*, 1; Thomas Rid (2010), *Ibid.*, 729 William Patterson (2016), *Ibid.*, 42-43; Isabelle Duyvesteyn, “Hearts and Minds, Cultural Awareness and Good Intelligence: The Blueprint for Successful Counter-insurgency?” *Intelligence and National Security*, Vol. 26, No. 4 (2011): 447; Daniel Whittingham, “‘Savage warfare’: C.E. Callwell, the roots of counterinsurgency, and the nineteenth century context,” *Small Wars & Insurgencies*, Vol. 23, No. 4-5 (2012): 592, 594, 601-602.

[47] Marina Miron (2019), *Ibid.*, 468; Ike Skelton and Jim Cooper, “You’re Not from Here, Are You?”, *JFQ*, No. 36 (2005): 14.

[48] Marina Miron (2019), *Ibid.*, 468-469.

[49] Anna Simons, “Anthropology, Culture, and COIN in a Hybrid Warfare World”, in *Hybrid Warfare and Transnational Threats: Perspectives for an Era of Persistent Conflict*. ed., Paul Brister, William Natter and Robert Tomes (New York: CENSA, 2011), 83; Christian Tripodi (2021), *Ibid.*, XI, XII, 46; Martin G. Clemis, “The ‘Cultural Turn’ in U.S Counterinsurgency Operations: Doctrine, Application, and Criticism,” *Army History*, No. 74 (2010): 22; Rochelle Davis, “Cultural Education and Training: The Era of COIN,” in *Cultural Awareness in the Military: Developments and Implications for Future Humanitarian Cooperation*, ed. Robert Albro and Bill Ivey (New York: Palgrave Macmillan, 2014), 43; Rochelle Davis,

“Culture as a Weapon System,” *Middle East Report*, No. 255 (2010): 9; Patricia Owens (2013), *Ibid.*, 142; Robert Albro and Bill Ivey, “Introduction: Military Culture Capacity after Afghanistan,” in *Cultural Awareness in the Military: Developments and Implications for Future Humanitarian Cooperation*, *Ibid.*, 2; Jon Askonas and Katherine Withy, “Thinking Failure in the War in Iraq: The Cultural Turn and the Concept of “World””, in *Why Philosophy?*, e. Paolo Diego Bubbio and Jeff Malpas (Berlin & Boston: De Gruyter, 2019), 67; Patrick Porter, “Good Anthropology, Bad History: The Cultural Turn in Studying War”, *Parameters*, Vol. 37, No. 2 (2007): 47-48; Maya Mynster Christensen and others, ““War amongst the people’ and the absent enemy: Towards a cultural paradigm shift?” (Research paper, Royal Danish Defense College, 2014), 5, 13.

[50] Martin G. Clemis (2010), *Ibid.*, 22.

[51] Ike Skelton and Jim Cooper (2005), *Ibid.*, 14.

[52] Montgomery Mcfate, “The Military Utility of Understanding Adversary Culture,” *JFQ*, No. 38 (2005a): 42; Carolyn F. Kleiner, “The Importance of Cultural Knowledge for Today’s Warrior-Diplomats” (U.S Army College, 2008), 4; William D. Wunderle, *Through the Lens of Cultural Awareness: A Primer for US Armed Forces Deploying to Arab and Middle Eastern Countries* (KS: Combat Studies Institute Press, 2006): 1; Montgomery Mcfate and Andrea Jackson, “An Organizational Solution for DOD’s Cultural Knowledge Needs”, *Military Review* (July-August 2005b): 18.

[53] Walter Wojdakowski, “Cultural Awareness: Useful Today, Vital Tomorrow”, *Infantry*, Vol. 97, No. 3 (May-June 2008): 1.

[54] Christian Tripodi (2021), *Ibid.*, 1-4, 6; Walter Wojdakowski (May-June 2008): 1; U.S Headquarters Department of the Army, *FM 3-24 Counterinsurgency*, December 2006, 1/15, 3/32; Montgomery Mcfate (2005a), *Ibid.*, 48.

[55] Rochelle Davis (2014), *Ibid.*, 45-46; Keith Brown, ““All They Understand Is Force”: Debating Culture in Operation Iraqi Freedom”, *American Anthropologist*, Vol. 110, No. 4 (December 2008): 444-446; Jon Askonas and Katherine Withy (2019), *Ibid.*, 67; Martin G. Clemis (2010), *Ibid.*, 25; Montgomery Mcfate (2005a), *Ibid.*, 43; Maya Mynster Christensen and others (2014), *Ibid.*, 6; *FM 3-24 Counterinsurgency*, *Ibid.*, 3/6; David H. Price, *Weaponizing Anthropology: Social Science in Service of the Militarized State* (California: CounterPunch & AK Press, 2011), 113.

[56] Scott Anderson, *Lawrence in Arabia: War, Deceit, Imperial Folly and the Making of the Modern*

Middle East (New York: Anchor Books, 2014), 346-347; David H. Petraeus, *ibid* (2006): 3.

[57] U.S Headquarters Department of the Army, *FM 3-24 Counterinsurgency*, December 2006, 1/18.

[58] Walter Wojdakowski, "Cultural Awareness: Useful Today, Vital Tomorrow", *Infantry*, Vol. 97, No. 3 (May-June 2008): 1.

[59] Montgomery Mcfate (2005a), 42.

[60] *Ibid.*, 42.

[61] Roberto J. Gonzalez, *American Counterinsurgency: Human Science and the Human Terrain* (Chicago: Prickly Paradigm Press, 2009), 46.

[62] Scott Anderson (2014), *Ibid.*, 3, 23, 27, 33, 86-88, 97, 150, 202-203, 208, 237; T.E Lawrence, *Seven Pillars of Wisdom: A Triumph* (VA: Wilder Publications Inc, 2011), 9, 12-13, 14-15, 29.

[63] *Ibid.*

[64] Johnharry Heuer Perez, "Applying Enemy and Population Centric Strategies to Counterinsurgency Efforts" (Master Thesis, Texas A&M University, 2018), 26; Scott Anderson (2014), *Ibid.*, 18.

[65] خالد عودة الله، "العلوم الاجتماعية الفلسطينية كمعرفة استعمارية"، قديتا، شوهد في 25 تشرين الثاني (2021)

<https://www.qadita.net/featured/khaled-3/>

Derek Gregory, *Ibid.*, 23.

[66] David H. Price, *Anthropological Intelligence: Deployment and Neglect of American Anthropology in the Second World War* (Durham & London: Duke University Press, 2008), XV.

[67] Santiago Castro-Gomez, "The Social Sciences, Epistemic Violence, and the Problem of the "Invention of the Other"", *Nepantla: Views from South*, Vol. 3, No. 2 (2002): 270.

[68] V.Y Mudimbe, eds., *Open the Social Sciences: Report of the Gulbenkian Commission on the Restructuring of the Social Sciences* (Stanford and California: Stanford University Press, 1996), 2, 13.

[69] Immanuel Wallerstein, *Unthinking Social Sciences: The Limits of Nineteenth-Century Paradigms*

(Philadelphia: Temple University Press, 2001), 18.

[70] V.Y Mudimbe, *Ibid.*, 6, 28; Immanuel Wallerstein (2001), *Ibid.*, 15-16, 18, 20; Santiago Castro-Gomez, *Ibid.*, 270-271.

[71] James C. Scott, *Seeing Like a State: How Certain Schemes to Improve the Human Condition Have Failed* (New Haven & London: Yale University Press, 1998), 2, 5, 13, 15, 18, 21-22, 24, 46-47.

[72] وائل حلاق، *الدولة المستحيلة: الإسلام والسياسة ومأزق الحداثة الأخلاقي*، ترجمة عمرو عثمان (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014، ط1)، 197-198.

[73] Mahmood Mamdani, *Neither Settler Nor Native: The Making and Unmaking of Permanent Minorities* (Cambridge, Massachusetts, London: The Belknap Press of Harvard University Press, 2020), 1-2.

[74] Santiago Castro-Gomez, *Ibid.*, 271, 277-278.

[75] Santiago Castro-Gomez, *Ibid.*, 271, 277-278.

[76] لورا خوري وسيف دعنا، "مخططات تصدير المعرفة الغربية: إسكات "الأخر" وخلق أسس معرفية مضادة"، *المستقبل العربي*، العدد 490 (2019): 28-29.

Sanjay Seth, "Once Was Blind but Now Can See": Modernity and the Social Sciences", *International Political Sociology*, Vol. 7, No. 2 (June 2013): 138.

[77] David Hyndman and Scott Flower, *The Crisis of Cultural Intelligence: The Anthropology of Civil-Military Operations* (New Jersey & London: World Scientific Publishing Co., 2019), 26-29, 47-49; Talal Asad eds., *Anthropology & the Colonial Encounter* (London: Ithaca Press, 1975), 16; David H. Price, *Weaponizing Anthropology: Social Science in Service of the Militarized State* (California: CounterPunch & AK Press, 2011): 15.

[78] David Nugent, "Knowledge and Empire: The Social Sciences and United States Imperial Expansion", *Identities: Global Studies in Culture and Power*, Vol. 17, No. 1 (2010): 2, 4, 7, 8, 19-20; David H. Price (2008), *Ibid.*, 14.

[79] David H. Price (2011), *Ibid.*, 19-20; David H. Price (2008), *Ibid.*, 19, 22-23, 25, 30, 50, 74, 78.

[80] *Ibid.*

[81] Ibid.

[82] ibid.

[83] David H. Price, *Cold War Anthropology: The CIA, the Pentagon, and the Growth of Dual Use Anthropology* (Durham & London: Duke University Press, 2016): XIV, XVI-XV, 9-10, 15, 22, 246, 248-249, 253-255.

[84] David Hyndman and Scott Flower, Ibid., 7, 94-95; Roberto J. Gonzalez, *American Counterinsurgency: Human Science and the Human Terrain* (Chicago: Prickly Paradigm Press, 2009): 6.

[85] Irving Louis Horowitz, eds., *The Rise and Fall of Project Camelot: Studies in the Relationship between Social Science and Practical Politics* (Cambridge and Massachusetts: The M.I.T Press, 1967), 4-5, 31, 47-48, 51, 53-54, 61.

[86] Ibid.

[87] Johan Galtung, "After Camelot" in *The Rise and Fall of Project Camelot: Studies in the Relationship between Social Science and Practical Politics*, Ibid., 291, 299.

[88] David H. Price (2011), Ibid., 33-35, 60-61.

[89] Kerry Patton, *Sociocultural Intelligence: A New Discipline in Intelligence Studies* (New York & London: The Continuum International Publishing Group, 2010): 11, 14, 80.

[90] Sanjay Seth (June 2013), Ibid., 146.

[91] وائل حلاق، قصور الاستشراق: منهج في نقد العلم الحداثي، ترجمة عمرو عثمان (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2019)، 43، 99، 173، 390.

[92] Walter D. Mignolo, *Local Histories/Global Designs: Coloniality, Subaltern Knowledges, and Border Thinking* (Princeton and Oxford: Princeton University Press, 2012), ix.

[93] Walter D. Mignolo, *The Idea of Latin America* (Oxford: Blackwell Publishing, 2005), xii.

[94] Kristie Dotson, "Tracking Epistemic Violence, Tracking Practices of Silencing", *Hypatia*, Vol. 26, No. 2 (Spring 2011): 236.

[95] هيثم غالب الناهي، تفتيت العراق: انهيار السلم المدني والدولة العراقية (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية،

.131-119 :(2013

[96] المصدر نفسه.

[97] المصدر نفسه.

[98] المصدر نفسه.

[99] المصدر نفسه.

[100] Montgomery Mcfate (March-April 2005c), *Ibid.*, 25.

[101] Montgomery Mcfate and Janice H. Laurence, "Introduction: Unveiling the Human Terrain System" in *Social Science Goes to War: The Human Terrain System in Iraq and Afghanistan*, eds. Montgomery Mcfate and Janice H. Laurence (Oxford & New York: Oxford University Press, 2015), 9.

[102] Christopher Sims, *The Human Terrain System: Operationally Relevant Social Science Research in Iraq and Afghanistan* (PA: United States Army College Press, 2015), 326.

[103] Nathan Finney, *Human Terrain Team Handbook* (Fort Leavenworth, KS: Human Terrain System, September 2008), 34.

[104] Paul Joseph, *"Soft" Counterinsurgency: Human Terrain Teams and US Military Strategy in Iraq and Afghanistan* (New York: Palgrave Macmillan, 2014), 40, 60.

[105] Montgomery Mcfate (March-April 2005c), *Ibid.*, 37.

[106] Roberto J. Gonzalez (2009), *Ibid.*, 26.

[107] James Dorough-Lewis Jr., "Investing in uncertainty: Applying Social Science to Military Operations", in *Social Science Goes to War: The Human Terrain System in Iraq and Afghanistan*, *Ibid.*, 204.

[108] Roberto J. Gonzalez (2009), *Ibid.*, 27.

[109] Christian Tripodi, *The Unknown Enemy: Counterinsurgency and the Illusion of Control* (Cambridge: Cambridge University Press, 2021), 11.

[110] Roberto J. Gonzalez (2009), *Ibid.*, 28-33; Gonzalez, *Militarizing Culture: Essays on the Warfare*

State (London & New York: Routledge, 2016), 113-116; Gonzalez, “‘Human Terrain’: Past, present and future applications”. *Anthropology Today*, Vol. 24, No. 1 (February 2008): 22-23; Gonzalez, “Ethnographic Intelligence: The Human Terrain System and Its Enduring Legacy”, in *Reconfiguring Intervention: Complexity, Resilience and the ‘Local Turn’ in Counterinsurgency Warfare*, eds. Louise Wiuuff Moe & Markus-Michael Muller (London: Palgrave Macmillan, 2017), 56-58; Montgomery Mcfate and Janice H. Laurence, *Ibid.*, 6.

[111] *Ibid.*

[112] *ibid.*

[113] Christian Tripodi, *Ibid.*, ix-x.

[114] Montgomery Mcfate and Janice H. Laurence, eds., *Social Science Goes to War: The Human Terrain System in Iraq and Afghanistan*, *Ibid.*, vii-xi.

[115] Montgomery Mcfate, “Mind the Gap: Bridging the Military/Academic Divide”, in *Social Science Goes to War: The Human Terrain System in Iraq and Afghanistan*, *ibid.*

[116] *Ibid.*, 46-47, 53-61.

[117] James Dorrough-Lewis Jr., *Ibid.*, 187-188, 192-199, 208-209; Paul Joseph, *Ibid.*, 72.

[118] Janice H. Laurence, “The Human Terrain System: Some Lessons Learned and the Way Forward”, in *Social Science Goes to War: The Human Terrain System in Iraq and Afghanistan*, *Ibid.*, 291-293.

[119] Christopher Sims, *Ibid.*, 138.

[120] Christopher Sims, *Ibid.*, 1-5, 23-29, 31-39. 109-138, 369-370; Montgomery Mcfate, “Iraq: The Social Context of IEDs”, *Military Review* (May-June 2005d): 157; Paul Joseph, *Ibid.*, 4.

[121] Nathan Finney, *Ibid.*, 2-4.

[122] *Ibid.*, 12-16, 37.

[123] *Ibid.*, 5-9.

[124] *Ibid.*, 49-58.

[125] Christopher Sims, *Ibid.*, 92-96.

[126] *Ibid.*, 45-46, 92-96, 186, 236, 345.

[127] Paul Joseph, *Ibid.*, 81-83.

[128] Paul Joseph, *Ibid.*, 81-83.

[129] David H. Price (2011), *Ibid.*, 108-109.

[130] Paul Joseph, *Ibid.*, 83.

[131] Christopher Sims, *Ibid.*, 70.

[132] David H. Price (2011), *Ibid.*, 104-105.

[133] وائل حلاق، قصور الاستشراق: منهج في نقد العلم الحدائثي، ترجمة عمرو عثمان (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2019)، 36، 307-308.

[134] Nathan Finney, *Ibid.*, 41-44.

[135] Christian Tripodi, *The Unknown Enemy: Counterinsurgency and the Illusion of Control* (Cambridge: Cambridge University Press, 2021), 146-150.

[136] Christopher J. Sims, *Ibid.*, 115.

[137] جاييس غليك، نظرية الفوضى: علم اللامتوقع، ترجمة احمد مغربي (بيروت: دار الساقي، 2008)، 39.

[138] هاني الراهب، خضراء كالبهار (دمشق: المدى، 2000)، 143.

المرجعية

باللغة العربية:

- الراهب، هاني. خضراء كالبهار. دمشق: المدى، 2000.
 - المسيري، عبد الوهاب. دراسات معرفية في الحداثة الغربية. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2006.
 - الناهي، هيثم غالب. تفتيت العراق: انهيار السلم المدني والدولة العراقية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2013.
 - حلاق، وائل. الدولة المستحيلة: الإسلام والسياسة ومأزق الحداثة الأخلاقي، ترجمة عمرو عثمان. الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014.
 - _____. قصور الاستشراق: منهج في نقد العلم الحداثي، ترجمة عمرو عثمان. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2019.
 - خوري، لورا وسيف دعنا. "مخططات تصدير المعرفة الغربية: إسكات "الأخر" وخلق أسس معرفية مضادة،" المستقبل العربي، العدد 490 (2019): 23-46.
 - عودة الله، خالد. "العلوم الاجتماعية الفلسطينية كمعرفة استعمارية،" قديتا نت.
- <https://www.qadita.net/featured/khaled3->
- غليك، جايمس. نظرية الفوضى: علم اللامتوقع. بيروت: دار الساقي، 2008.

باللغة الإنجليزية

- Albro, Robert and Bill Ivey. "Introduction: Military Culture Capacity after Afghanistan," in *Cultural Awareness in the Military: Developments and Implications for Future Humanitarian Cooperation*, ed., Robert Albro and Bill Ivey, 114-. New York: Palgrave Macmillan, 2014.
- Anderson, Scott. *Lawrence in Arabia: War, Deceit, Imperial Folly and the Making of the Modern Middle East*. New York: Anchor Books, 2014.

- Asad, Talal (ed.). *Anthropology & the Colonial Encounter*. London: Ithaca Press, 1975.
- Askonas, Jon and Katherine Withy. "Thinking Failure in the War in Iraq: The Cultural Turn and the Concept of "World"," in *Why Philosophy*, ed., Paolo Diego Bubbio and Jeff Malpas, 6580-. Berlin and Boston: De Gruyter, 2019.
- Beckett, Ian F.W. *Modern Insurgencies and Counter-insurgencies: Guerrillas and their Opponents since 1750*. London & New York: Routledge, 2001.
- Beyerchen, Alan. "Clausewitz, Nonlinearity, and the Unpredictability of War," *International Security*, Vol. 17, No. 3 (1992)90-59 :(1993-.
- Brown, Keith. "'All They Understand Is Force': Debating Culture in Operation Iraqi Freedom," *American Anthropologist*, Vol. 110, No. 4 (2008): 443453-.
- Buley, Benjamin. *The New American Way of War: Military Culture and the Political Utility of Force*. London & New York: Routledge Taylor & Francis Group, 2008.
- Burton, Brian & John Nagl. "Learning as we go: the US army adapts to counterinsurgency in Iraq, July 2004-December 2006," *Small Wars & Insurgencies*, Vol. 19, No. 3 (2008): 303327-.
- Castro-Gomez, Santiago. "The Social Sciences, Epistemic Violence, and the Problem of the "Invention of the Other"" *Nepantla: Views from South*, Vol. 3, No. 2 (2002): 269285-.
- Christensen, Maya Mynster and others. "'War amongst the people' and the absent enemy: Towards a cultural paradigm shift?" Research paper. *Royal Danish Defense College*, 2014.
- Clemis, Martin G. "The "Cultural Turn" in U.S Counterinsurgency Operations: Doctrine, Application, and Criticism," *Army History*, No. 74 (2010): 2129-.
- Corum, James S. "Rethinking US Army Counter-insurgency Doctrine". *Contemporary Security Policy*, Vol. 28, No. 1 (2007): 127.142-
- Davis, Rochelle. "Cultural Education and Training: The Era of COIN". In *Cultural Awareness in the Military: Developments and Implications for Future Humanitarian Cooperation*, edited by Robert Albro and Bill Ivey, 4256-. New York: Palgrave Macmillan, 2014.
- _____, "Culture as a Weapon System". *Middle East Report*, No. 255 (Summer 2010): 813-.

- Dorrough-Lewis Jr., James. "Investing in uncertainty: Applying social science to military operations". In *Social Science Goes to War: The Human Terrain System in Iraq and Afghanistan*, edited by Montgomery Mcfate and Janice H. Laurence, 187211-. Oxford & New York: Oxford University Press, 2015.
- Dotson, Kristie. "Tracking Epistemic Violence, Tracking Practices of Silencing". *Hypatia*, Vol. 26, No. 2 (Spring 2011): 236257-.
- Duyvesteyn, Isabelle. "Hearts and Minds, Cultural Awareness and Good Intelligence: The Blueprint for Successful Counter-insurgency?". *Intelligence and National Security*, Vol. 26, No. 4 (2011): 445459-.
- Fawcett, Grant S. "Cultural Understanding in Counterinsurgency: Analysis of the Human Terrain System". Monograph, *School of Advanced Military Studies, United States Army Command and General Staff College*, 2009.
- Finney, Nathan. *Human Terrain Team Handbook*. Fort Leavenworth, KS: Human Terrain System, September 2008.
- Galtung, Johan. "After Camelot". In *The Rise and Fall of Project Camelot: Studies in the Relationship between Social Science and Practical Politics*, edited by Irving Louis Horowitz, 281312-. Cambridge and Massachusetts: The M.I.T. Press, 1967.
- Gentile, Gian P. "A Strategy of Tactics: Population-centric COIN and the Army". *Parameters*, Vol. 39, No. 3 (Autumn 2009): 517-.
- Gonzalez, Roberto J. *American Counterinsurgency: Human Science and the Human Terrain*. Chicago: Prickly Paradigm Press, 2009.
- _____. *Militarizing Culture: Essays on the Warfare State*. London and New York: Routledge, 2016.
- _____. "Human Terrain': Past, present and future applications". *Anthropology Today*, Vol. 24, No. 1 (February 2008): 2126-.
- _____. "Ethnographic Intelligence: The Human Terrain System and Its Enduring Legacy", in *Reconfiguring Intervention: Complexity, Resilience and the 'Local Turn' in Counterinsurgency Warfare*, eds. Louise Wiuff Moe & Markus-Michael Muller. London: Palgrave Macmillan, 2017.
- Gregory, Derek. "'The Rush to the intimate': Counterinsurgency and the Cultural Turn in Late Modern War". *Geographical Imaginations blog*, 2008. <https://bit.ly/36GxMqa>

- Gventer, Celeste Ward. "Keep the change: Counterinsurgency, Iraq, and historical understanding". *Small Wars & Insurgencies*, Vol. 25, No. 1 (2014): 242253-.
- Herbig, Katherine L. "Chance and Uncertainty in On War". *Journal of Strategic Studies*, Vol. 9, No. 2116-95 :(1986) 3-.
- Hill, Rochelle W. "Re-inventing Counterinsurgency Doctrine: Why the United States Failed in Iraq and Afghanistan". Master Thesis, *National Defense University, Joint Forces Staff College, Joint Advanced Warfighting School*, 2016.
- Holmes, Terence M. "Planning versus Chaos in Clausewitz's on War". *Journal of Strategic Studies*, Vol. 30, No. 1 (2007): 129151-.
- Horowitz, Irving Louis, eds. *The Rise and Fall of Project Camelot: Studies in the Relationship between Social Science and Practical Politics*. Cambridge and Massachusetts: The M.I.T. Press, 1967.
- Hyndman, David and Scott Flower. *The Crisis of Cultural Intelligence: The Anthropology of Civil-Military Operations*. New Jersey & London: World Scientific Publishing Co., 2019.
- Joseph, Paul. *"Soft" Counterinsurgency: Human Terrain Teams and US Military Strategy in Iraq and Afghanistan*. New York: Palgrave Macmillan, 2014.
- Kilcullen, David. *The Accidental Guerrilla: Fighting Small Wars in the Midst of a Big One*. New York: Oxford University Press, 2009.
- Kleiner, Carolyn F. "The Importance of Cultural Knowledge for Today's Warrior-Diplomats". *U.S Army War College*, 2008.
- Laurence, Janice H. "The Human Terrain System: Some lessons learned and the way forward". In *Social Science Goes to War: The Human Terrain System in Iraq and Afghanistan*, edited by Montgomery Mcfate and Janice H. Laurence, 291316-. Oxford & New York: Oxford University Press, 2015.
- Lawrence, T.E. *Seven Pillars of Wisdom*. VA: Wilder Publications Inc, 2011.
- Mamdani, Mahmood. *Neither Settler nor Native: The Making and Unmaking of Permanent Minorities*. Cambridge, Massachusetts, London: The Belknap Press of Harvard University Press, 2020.
- Mcfate, Montgomery. "The Military Utility of Understanding Adversary Culture". *JFQ*, No. 38

(2005a): 4248-.

- ____ and Andrea Jackson. "An Organizational Solution for DOD's Cultural Knowledge Needs". *Military Review* (July-August 2005b): 1821-.
- ____, "Anthropology and Counterinsurgency: The Strange Story of their Curious Relationship". *Military Review* (March-April 2005c): 2438-.
- _____. "Iraq: The Social Context of IEDs", *Military Review* (May-June 2005d): 157160-.
- ____ and Janice H. Laurence, "Introduction: Unveiling the Human Terrain System". In *Social Science Goes to War: The Human Terrain System in Iraq and Afghanistan*, edited by Montgomery Mcfate and Janice H. Laurence, 144-. Oxford & New York: Oxford University Press, 2015.
- _____. "Mind the Gap: Bridging the Military/Academic Divide". In *Social Science Goes to War: The Human Terrain System in Iraq and Afghanistan*, edited by Montgomery Mcfate and Janice H. Laurence, 4589-. Oxford & New York: Oxford University Press, 2015.
- Melillo, Michael R. "Outfitting a Big-War Military with Small-War Capabilities". *Parameters*, Vol. 36, No. 3 (Autumn 2006): 2235-.
- Metz, Steven. "Learning from Iraq: Counterinsurgency in American Strategy". *Strategic Studies Institute, US Army War College*, 2007.
- Mignolo, Walter D. *Local Histories/Global Designs: Coloniality, Subaltern Knowledges, and Border Thinking*. Princeton and Oxford: Princeton University Press, 2012.
- ____, *The Idea of Latin America*. Oxford: Blackwell Publishing, 2005.
- Milewski, Lukas. "The idea of genius in Clausewitz and Sun Tzu". *Comparative Strategy*, Vol. 38, No. 2 (2019): 139149-.
- Miron, Marina. "On Irregular Wars, Insurgencies and How to Counter Them: Enemy and Population-Centric Approaches in Comparative Perspective". *Revista Científica General José María Córdova*, Vol. 17, No. 27 (2019): 457480-.
- Mudimbe, V.Y, eds. *Open the Social Sciences: Report of the Gulbenkian Commission on the Restructuring of the Social Sciences*. Stanford and California: Stanford University Press, 1996.

- Neill, Don. "The Graduate Level of War": Continuity and Change in U.S. Counter-Insurgency Strategy". *Defense R&D Canada, Center for Operational Research & Analysis*, August 2008.
- Nugent, David. "Knowledge and Empire: The Social Sciences and United States Imperial Expansion". *Identities: Global Studies in Culture and Power*, Vol. 17, No. 1 (2010): 244-.
- Oberoi, Sharad V. "Population-centric Counterinsurgency as seen through the Iraq War Logs: A Preliminary Evaluation". Master Thesis, University of Chicago, 2011.
- Owens, Patricia. "From Bismarck to Petraeus: The question of the social and the Social Question in counterinsurgency". *European Journal of International Relations*, Vol. 19, No. 1 (March 2013): 139161-.
- Patterson, William. *Democratic Counterinsurgents: How Democracies Can Prevail in Irregular Warfare*. London: Palgrave Macmillan, 2016.
- Patton, Kerry. *Sociocultural Intelligence: A New Discipline in Intelligence Studies*. New York & London: The Continuum International Publishing Group, 2010.
- Paul, Christopher and others. "Moving Beyond Population-Centric vs. Enemy-Centric Counterinsurgency". *Small Wars & Insurgencies*, Vol. 27, No. 6 (2016): 10191042-.
- Perez, Johnharry Heuer. "Applying Enemy and Population Centric Strategies to Counterinsurgency Efforts". Master Thesis, *Texas A&M University*, 2018.
- Petraeus, David H. "Reflections on the Counter-Insurgency Era". *The RUSI Journal*, Vol. 158, No. 4 (2013): 8287-.
- _____, "Learning Counterinsurgency: Observations from Soldiering in Iraq". *Military Review*(January-February 2006): 212-.
- Pirnie, Bruce R. and Edward O'Connell. *Counterinsurgency in Iraq (20032006-)*. California: RAND National Defense Research Institute, 2008.
- Porter, Patrick. "Good Anthropology, Bad History: The Cultural Turn in Studying War". *Parameters*, Vol. 37, No. 2 (Summer 2007): 4558-.
- Price, David H. *Weaponizing Anthropology: Social Science in Service of the Militarized State*. California: CounterPunch & AK Press, 2011.

- _____. *Anthropological Intelligence: Deployment and Neglect of American Anthropology in the Second World War*. Durham & London: Duke University Press, 2008.
- _____. *Cold War Anthropology: The CIA, the Pentagon, and the Growth of Dual Use Anthropology*. Durham & London: Duke University Press, 2016.
- Record, Jeffrey. "The American Way of War: Cultural Barriers to Successful Counterinsurgency". *Cato Institute*, No. 577 of Policy Analysis (September 2006).
- Rid, Thomas. "The Nineteenth Century Origins of Counterinsurgency Doctrine". *The Journal of Strategic Studies*, Vol. 33, No. 5 (October 2010): 727758-.
- Russell, James A. "Counterinsurgency American style: Considering David Petraeus and twenty-first century irregular war". *Small Wars & Insurgencies*, Vol. 25, No. 1 (2014): 6990-.
- Ryan, Maria. "'Full spectrum dominance': Donald Rumsfeld, the Department of Defense, and US irregular warfare strategy, 20012008-". *Small Wars & Insurgencies*, Vol. 25, No. 1 (2014): 4168-.
- Salmoni, Barak A. and Paula Holmes-Eber. *Operational Culture for the Warfighter: Principles and Applications*. Virginia: Marine Corps University Press, 2008.
- Scales, Robert. "Army Transformation: Implications for the Future". The House Armed Service Committee, 15 July 2004.
- _____, "Clausewitz and World War IV", 2006. Retrieved from <http://armedforcesjournal.com/clausewitz-and-world-war-iv/>
- Scott, James C. *Seeing Like a State: How Certain Schemes to Improve the Human Condition Have Failed*. New Haven & London: Yale University Press, 1998.
- Seth, Sanjay. "'Once Was Blind but Now Can See': Modernity and the Social Sciences". *International Political Sociology*, Vol. 7, No. 2 (June 2013): 136151-.
- Simons, Anna. "Anthropology, Culture and COIN in a Hybrid Warfare World". In *Hybrid Warfare and Transnational Threats: Perspectives for an Era of Persistent Conflict*, edited by Paul Brister, William Natter and Robert Tomes, 8391-. New York: CENSA, 2011.
- Sims, Christopher J. *The Human Terrain System: Operationally Relevant Social Science Research in*

Iraq and Afghanistan. PA: United States Army War College Press, 2015.

- Skelton, Ike and Jim Cooper. "You're Not from Around Here, Are You?". **JFQ**, No. 36 (2005): 1216-.
- Tripodi, Christian. *The Unknown Enemy: Counterinsurgency and the Illusion of Control*. Cambridge: Cambridge University Press, 2021.
- Ucko, David H. *The New Counterinsurgency Era: Transforming the U.S. Military for Modern Wars*. Washington D.C: Georgetown University Press, 2009.
- U.S Headquarters Department of the Army, *FM 324- Counterinsurgency*, December 2006.
- Waldman, Thomas. "Shadows of Uncertainty': Clausewitz's Timeless Analysis of Chance in War". *Defense Studies*, Vol. 10, No. 3 (2010): 336368-.
- _____, "War, Clausewitz, and the Trinity". PhD diss., University of Warwick, 2009.
- Walker, Lydia. "Forging a Key, Turning a Lock: Counterinsurgency Theory in Iraq 20062008-". *Studies in Conflict & Terrorism*, Vol. 32, No. 10 (2009): 909918-.
- Wallerstein, Immanuel. *Unthinking Social Science: The Limits of Nineteenth-Century Paradigms*. Philadelphia: Temple University Press, 2001.
- Whittingham, Daniel. "'Savage warfare': C.E. Callwell, the roots of counter-insurgency, and the nineteenth century context". *Small Wars & Insurgencies*, Vol. 23, No. 4607-591 :(2012) 5-.
- Wojdakowski, Walter. "Cultural Awareness: Useful Today, Vital Tomorrow". *Infantry*, Vol. 97, No. 3 (May-June 2008): 1.
- Wunderle, William D. *Through the Lens of Cultural Awareness: A Primer for U.S Armed Forces Deploying to Arab and Middle Eastern Countries*. KS: Combat Studies Institute Press, 2006.

هذا الكتاب

تتناول هذه الدراسة المطوّلة تحوُّلات الغزو الأمريكي للعراق وما انطوى عليه من انتقال من حرب تقليدية (بين جيوش عسكرية)، إلى حرب لمكافحة التمرد (تحوّل فيها مركز الثقل العسكري في الحرب إلى المجتمع العراقي) بحثاً عن يقين سياسي-عسكري افتقرت إليه الآلة العسكرية-السياسية الأمريكية منذ البدايات، لتحديد ماهية اليوم التالي لسقوط النظام، وبما يشكّل الأرضية لترتيبات كانت تسعى في حينه لضمان مصالح الولايات المتحدة الأمريكية في العراق المستدامة. ولعلّ أبرز مفاصل هذه التحوُّلات هي الانعطاف الثقافية للمجهود الحربي التي رافقها صعود دور الباحث-المقاتل في برنامج نظام التضاريس البشرية العسكري الذي طبّق في مسرح العمليات في أفغانستان والعراق، في محاولة لفهم المجتمع العراقي ومن ثمّ التدخّل في عملية هندسة اجتماعية تستهدفه بكلّيته. وبناء على ذلك، تأتي راهنية نشر هذه الدراسة المطوّلة اليوم للإضاءة على أحد ممكنات الحديث المتواصل عن «اليوم التالي للحرب في غزة»، على الرغم من اختلاف السياقات العراقية والفلسطينية، إلا أن ما تسعى إليه «إسرائيل» اليوم عقب فشلها في تهجير الفلسطينيين، وعدم امتلاكها سياسة ما بعد توقّف العمليات الحربية، هي التعامل مع أهل البلاد قاطني قطاع غزة، ضمن رؤية تحدّث عنها رئيس الوزراء الصهيوني بنيامين نتنياهو وهي تحقيق هزيمة شبيهة بهزيمة ألمانيا واليابان في الحرب العالمية الثانية، إذ لم تكن تلك الهزائم العسكرية للجيوش المقاتلة بقدر ما كانت هزيمة للمجتمعات.

ISBN 978-9950-8609-1-9



9 789950 860919

عنان حمد الله

تحولات الحرب الأمريكية على العراق

الانعطاف الثقافي، صعود الباحث المقاتل،
والعنف الإِبستيمِي

عنان حمد الله

تحولات الحرب الأمريكية على العراق

3

كتاب الجنوب



الجنوب

هذا الكتاب

تتناول هذه الدراسة المطوّلة تحوُّلات الغزو الأمريكي للعراق وما انطوى عليه من انتقال من حرب تقليدية (بين جيوش عسكرية)، إلى حرب لمكافحة التمرد (تحوُّل فيها مركز الثقل العسكري في الحرب إلى المجتمع العراقي) بحثاً عن يقين سياسي-عسكري افتقرت إليه الآلة العسكرية-السياسية الأمريكية منذ البدايات، لتحديد ماهية اليوم التالي لسقوط النظام، وبما يشكّل الأرضية لترتيبات كانت تسعى في حينه لضمان مصالح الولايات المتحدة الأمريكية في العراق المستدامة. ولعلّ أبرز مفاصل هذه التحوُّلات هي الانعطاف الثقافي للمجهود الحربي التي رافقها صعود دور الباحث-المقاتل في برنامج نظام التضاريس البشرية العسكري الذي طُبّق في مسرح العمليات في أفغانستان والعراق، في محاولة لفهم المجتمع العراقي ومن ثمّ التدخُّل في عملية هندسة اجتماعية تستهدفه بكليته. وبناء على ذلك، تأتي راهنية نشر هذه الدراسة المطوّلة اليوم للإضاءة على أحد ممكنات الحديث المتواصل عن «اليوم التالي للحرب في غزة»، على الرغم من اختلاف السياقات العراقية والفلسطينية، إلا أن ما تسعى إليه «إسرائيل» اليوم عقب فشلها في تهجير الفلسطينيين، وعدم امتلاكها سياسة ما بعد توقُّف العمليات الحربية، هي التعامل مع أهل البلاد قاطني قطاع غزة، ضمن رؤية تحدّث عنها رئيس الوزراء الصهيوني بنيامين نتنياهو وهي تحقيق هزيمة شبيهة بهزيمة ألمانيا واليابان في الحرب العالمية الثانية، إذ لم تكن تلك الهزائم العسكرية للجيوش المقاتلة بقدر ما كانت هزيمة للمجتمعات.

ISBN 978-9950-8609-1-9



9 789950 860919